لجنة التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية



من منابع الفكر الإسلامي

تأليف الأستاذ
أنور الجندي

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب الرابع والثلاثون
١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

يسعدنى أن اقدم الى الشباب المسلم والعربى المثقف فى كل مكان ، قبسا من (منابع الفكر الاسلامى العربى اللغة فى مجال الكلمة ، رجاء ان يحقق ذلك أملا يتطلع اليه المثقفون ، يستهدف غربلة كتب التراث وتلخيصها ، لتعطى فى حيز قليل عصارة خصبة لمفهوم الفكر الاسلامى وقيمه الأساسية ومفاهيمه العامة فى العلاقة بين الانسان وهذا الكون كله ، ولعل ذلك يحقق تقديم الوثائق والاسانيد السريعة التى تدفع عن فكرنا تهم التخلف والعجز والقصور .

والهدف الأكبر لتقديم هذه العصارة الموجزة هو تأكيد عدة معانى أهمها :

اولا : ان الفكر الاسلامى العربى اللغة قد تكونت مقوماته واسسه قبل أن يتصل بالفكر اليونانى الذى نقل اليه بالترجمة فى عصر المأمون وأن القيم الاسلامية الأساسية قد استطاعت أن تسيطر على هذا التراث الضخم الذى ترجم ونقل من الثقافات الفارسية والهندية واليونانية وأن تستصفى منه ما يتفق مع مقومات هذه الأسس وأن تخضع مترجمات الفكر الوافد لمفاهيم الاسلام القائمة اساسا على التوحيد وسيادة الانسان على الكون تحت حكم الله . وهذا ما يختلف عن اسس الفكر اليونانى او الغربى .

ثانيا : ان هذه العصارة المقتبسة من الفكر الاسلامى فى مراحله المختلفة من كلمات الرسول وكلمات الصحابة وكلمات المجاهدين وكلمات التابعين وكلمات العلماء فى خلال مرحلة ممتدة منذ بزوغ الاسلام الى القرن السادس الهجرى او ما بعده ، هذه العصارة تتسق فى خط واحد ،

وتمتد فى توسعاتها وتفرعاتها متصلة اوثق اتصال بالمنبع الأول وهو القرآن ثم الكلمة النبوية لا تتخلف عنه ولا تتحول .

ثالثا : تكشف منابع الفكر الاسلامى عن الايجابية والتجـدد ، والشمول والقـدرة على التطور والحركة ، وفيض الحيـاة ، والتقبل والالتقاء بالحضارات والفكر الانسانى ، وقد كان جوهر هذا الفكر الاسلامى وما زال عصريا صالحا لكل زمان ومكان .

رابعا : ان لفكرنا جوهر واضح يختلف عن فكر الغرب ، هذا الجوهر قادر على الحياة وقادر على العطاء ، قادر على التقبـل والامتصاص من من الفكر الانسانى ، قادر على ان يحتفظ بكيانه وطابعه الذى يتأبى على ان يذوب فى الفكر الاممى . قادر على أن يحتفظ بمقوماته فلا يكون تابعا او مستوردا .

خامسا : يقوم الفكر الاسلامى اساسا على التوحيد وسيادة الانسان للكون تحت حكم الله وفيـه تترابط كل القيم وتتكامل ولا يتجزأ وفق نظرة الشمول ، ذلك لانها تجرى فى مجال واحد ، هو بناء الانسان نفسه بناءا ايجابيا يدفعه الى العمل والانشاء والكفاح ، دون أن يزهده فى الدنيا ، او ينحرف به عن الحق والخلق . وهو ليس فكراً متعصبا او مغلقا ، ولكنه متطور حى ، لا ينعزل عن المجتمع ، ولا يستعلى عليه ، وهو قادر على أن يمده بالقوة والايجابية ، ويرى فى الحضـارة قوة فعالة ، عالمية ، شارك فى بنائها أول الشوط ، فليس عليه من ضير أن يشيد جوانبهـا العلمية والصناعية ويقيـم بنائها فى أرضه بالحق ، ويسير فى ركب الانسـانية منشـئا من قيمه ومفاهيمه أسـاس بناء حياته وفكره .

وقد صدق روم لاندو حين قال : « انه لا يوجـد سبب على الاطلاق يبرر الزعم بأن العرب والمسلمين قد فقدوا الصفات التى مكنت أجدادهم من أن يقيموا حضارتهم العظيمة فهم ما زالوا يملكون الرجولة والمروءة ، وذلك الاستطلاع العقلى الحاد ، وذلك الخيال المبدع » .

***

وقد عاشت منابع الفكر الاسلامى ، حية نابضه ، متصلة بالحيـاة فى العالم الاسلامى تحمل عصارة الحكمة والرأى فى كل ما يتصل بأمر الناس فى اعمالهم ومعاشهم .

وفى عشرات من الكتب والاسفار تجرى هذه الكلمات المضيئة مجرى المثل على السنة الباحثين والكتاب لترسم صورة فكر واضح المعالم ليس هو فكر الشرق ولا فكر الغرب ، ليس طابعه الروح أو طابعه المادة ، وانما هو مزيج من الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والدنيا والآخرة ، وما تزال هـذه الكلمة بعد أربعة عشر قرنا حيـة قوية تتفاعل مع عقول المسلمين وقلوبهم وترسم جوهر الخلق والسلوك والتعامل الانسانى الشامل . وما زلنا نجـد فيها صدى أنفسنا وهدى أرواحنا ، ولقد كان الفكر الاسلامى العربى اللغة فكرا حيا ذكيا قادرا على الحركة مؤمنا بالايجابية والعمل متطلعا قادرا فى مجال الفكر والعلم والبناء ، وهو فى كل خطواته يربط عمله بالخلق ، ويربط تصرفه بالضمير ، وظل طابعـه متمثلا فى الـكلمة : « العلم من الشرف » ، فالمسلمون بحق هم أول من جمع بين حرية الفكر واستقامة الدين ، وما عرف العالم فاتحا اعدل ولا ارحم من المسلمين وان الايمان العميق بالله قد جنب الثقافة الاسلامية الانقسام الى دينية وعقلية .

وهكذا تتجلى الثقافة الاسلامية فى تطورها مستمدة أساسا من «القرآن» الكريم ، فالقرآن هو مصدر القيم الاساسية للفكر الاسلامى ، والى هـذا المنهج تعود تلك الظاهرة التى ادهشت المؤرخين والباحثين حتى اليوم من قدرة الاسلام على الانتشار والتوسـع فى قرن من الزمان ، ولعله ليس من المبالغة القول بأن انفصـال المسلمين عن هـذه المقومات هو الذى أصابهم بالضعف والانحسار عن مكان الصدارة ، فالثقافة الاسلامية كانت فى مجال التطبيق حيه متفاعلة ، فلما انفصلت عن الحياة والمجتمع ، ذهبت الوحـدة والأخوة ، ومع ذلك فقد بقيت حيه قادرة أن تعطى المسلمين وغير المسلمين ضياءا جديدا وما تزال القيم التى تمثلها (الثقافة الاسلامية) قائمة ، مرتبطة بيقظتنا الجديدة ونهضتنا التى تتوسع افاقها فى العالم الاسلامى بعامة والامة العربية جزء منه ، فنحن اليوم نستمد منها مناهج فكرنا واعمالنا وميثاقنا ،

فجوهر الفكر الاسلامى يدعو الى الايجابية والعمل والبناء والقوة والعدل الاجتماعى والموائمة مع العصر ، واقامة الحضارة والنهضة على اساس المقومات الاساسية لفكرنا من عدل وخلق وحرية . واننا حين نلتمس من الفكر الاسلامى أضواء جديدة لحياتنا نجد فيها كل ما يدفعنا الى القوة والحياة والتقدم ، فهى تبنى عالما متكاملا تحف بنهضته عناصر الضمير والخلق واحسان العمل والزهد فى المطامع ، والتوسط فى الأمور ، بلا انحراف ولا جمود .

ولقد عاش الفكر الاسلامى واقعيا تطبيقيا وليس مثلا عاليا طوبيا يبدو صعب المنال .

وفى ضوء الفكر الاسلامى نجد مفاهيم الدين متصلة بالمجتمع ، ونجد الاسلام قادرا على العصرية والايجابية والتقدمية ، وما من مذهب ايجابى من مذاهب العصر الا وله جذور فى الفكر الاسلامى . واذا كانت « الكلمة » هى التراث ، فانما هى فى الفكر الاسلامى التراث الحى المتفاعل مع الحياة لم ينقطع تفاعله ، ولقد كان مصدر ضعف العالم الاسلامى وتأخره فى خلال القرون الأخيرة هو ما صوره بحق « جوستاف لوبون » حين قال : « ان سبب انحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبثه بالعقائد الباطلة ، فان قوة الدين قوة ادبية لا يستهان بها ، وان الشعب الذى يريد الرقى يجب الا يقطع الصلة التى تربطه بماضيه » .

ولا شك هذه النماذج من الكلمات المضيئة تعطى حقيقة اساسية ، وهى أن الاسلام يتفق مع روح العصر فى ايجابيته ويلتقى بالحضارات فى منازعها الانسانية ويتجاوب ، وفيه جذور خصبه لكل النظرات الحديثة من اشتراكية وديمقراطية وقومية وحرية .

وان هذه « الكلمات » تستطيع أن ترسم منهجا كاملا للانسان والحياة ، قائما على الحرية والكرامة والايمان والخلق والعصرية من شأنه ان يدفع الانسان فى الحياة ايجابيا قادرا على العمل ، دون أن تقف أمامه أى حوائل من الجمود أو التعصب او الانحراف ولا شك ان (الكلمة) المستمدة من جوهر الفكر الاسلامى تستطيع ان تعطى الانسانية كلها حلولا ايجابية

لقضاياها وادوائها وترسم لها الطريق المضيء بارتباط الروح بالمـادة والعقل بالقلب ، واعطاء الحضارة عوامل الرحمة والعدل والمسـاواة . ولا شك ان (الكلمة) التى تستمد من الاسـلام جوهرها على هذه الصـورة الموجزة تستطيع ان تكون رداً حاسما لمـا وجه لفكرنا العربى من اتهامات بالعجـز والقصـور او التخلف ، وهى تعطى الحقيقة التى لا تنقض أنه ليس فكرنا الاسلامى العربى هو الذى فرض على العالم الاسلامى التأخر او الجمود ، وانما كان التخلف عن تطبيق مفاهيم الاسلام وقيمه هو الذى نقل العـالم الاسلامى الى مرحلة التخلف ولقد أعطى الفكر الاسلامى الحياة الانسانية من مفاهيم التوحيد والايجابية ، حقائق تتمثل دائما فى تلك المطابقة الفذة بين الكلمة والحياة ، فالرسول محمد صلى الله عليه وسلم كما تصفه زوجـه السيدة عائشة « كان خلقه القرآن » فقد كان بحيـاته وشخصه وسلوكه تطبيقا عمليا لما رسمه القرآن الكريم الموصى به من اللهسبحانه منهجا للاسلام ، ودعوة للعالمين وبرهانا للشخصية الانسانية فى نموذجها الذى يربط العمل بالخلق ، والروح بالمادة ، هذه الشخصية التى تتطلع اليها البشرية اليوم بعد أن مرت بمراحـل طويلة من التطور ، وواجه اهلهـا دعوات متعددة واديان متوالية ، فقد جاء الاسلام دعوة للناس كافة ، وأقر كلمته فى « القرآن » ، الذى هو المصدر الاول للفكر الاسلامى ، ومن هنا نشأت ثقافة جديدة على لسان النبىوالصحابة والتابعين والمجاهدين والزاهدين والعلمـاء والأئمة ، وقد رسمت هذه الثقافة فى طريقها الطويل خطا واضحا لابعـاد الشخصية الانسانية فى معاملاتها ، فى حربها وسلمها ، فى علاقتها بالله وعلاقة الانسان بالانسان .

وما تزال هذه الثقافة حية تهدى كل النهضات ، وترسم للمسلمين والعرب الطريق ، فهى جوهر فكره وضمير امه ، وهى عدة بناء الشخصية الانسانية المؤهلة لحمل لواء النهضة وامانة الحياة الايجابية القادرة ، وهى لنا اليوم هدى وضياء تعطينـا الدليل على أن لنا جذروا بعيدة المـدى فى الانسانية ، ودورا واضحا فى الحضـارة والفكر البشرى ، وتؤكد اننـا نستطيع مرة أخرى أن ننطلق الى مكاننا المرموق فى العالم ، نعطى ونأخذ

ونمد الحضارة بالضوء الجديد ، وما تزال ينابيع فكرنا حية متجددة فياضه بالحياة ، ونحن حين نفتح نوافذنا اليوم للفكر الانسانى انما نأخذ منه وندع وفق منهج لا يعرف الجمود ولا يعرف التعصب واليوم ونحن نمضى فى ركب الحضارة الى أرقى ما وصلت اليه الحضارة من بناء القوة الذاتية والعسكرية والصناعية ونصل الى عصر الصواريخ ، نجد فى جوهر الفكر الاسلامى زادا يهدينا ويحقق طابعنا وروحنا فى إننا « أمة » علمت الانسانية كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الضمير ، وان الايمان العميق بالله قد جنب الثقافة الاسلامية العربية الانقسام الى دينية وعقلية . وقد كان الفكر الاسلامى ولا يزال بالنسبة للعرب اقوى معبر عن شخصيتهم وهو ثقافتهم القومية وما يزال الفكر الاسلامى العربى قادراً على اعطاء زاد جديد للانسانية فى طريقها الطويل ..

•

الكلمة النبوية

حين نلتقى بحياة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفكره ، نذكر للحظة الأولى كلمة السيدة عائشة عنه : « كان خلقه القرآن » فنجد فى كل مظاهر حياته هذا المعنى واضحا صادقا ، اذ لقيه أحد من أصحابه قام معه ولم ينصرف حتى يكون هو الذى ينصرف واذا ما لقيه أحد فتناول يده ناوله اياها فلم ينزع يده ، فاذا زاره رجل لقيه على النحو الذى يتفق مع مفاهيمه وخلقه ، دخل أبو بكر عليه وهو مضجع وعليه ثوبه فقضى حاجته وكلمه ومضى ، ودخل عمر وهو على نفس الهيئة التى لقى بها أبو بكر ، ثم جاء على ، فلما استأذن (عثمان بن عفان) جلس له النبى فقالت عائشة : لم تصنع هذا بأحد فأجاب النبى : ان عثمان رجل حيبى ، وانى خشيت ان أذنت له على تلك الحال الا يبلغ الى فى حاجته .

وقال أنس بن مالك انه كان يعود المريض ويتبع الجنائز ويجيب دعوة المملوك ويركب الحمار ، ولقد رأيته يوم حنين على حمار خطامه ليف .

وكان اذا أقبل جلس حيث ينتهى به المجلس ، وكان يمـد طرف ردائه لحليمة السعدية (حاضنته) لتجلس عليه ويلقى وسادته لضيفه ، ويجلس هو على الأرض ، وكان له حصير يحتجزه فى الليل فيصلى فيـه ، ويبسطه بالنهار ليجلس عليه .

وكان يقول ان الله يحب من أحدكم اذا خرج لاخوانه ان يتجمل لهم ، وقالوا : كنا نعرف خروج النبى برائحة الطيب ، وقال أبو هريرة : خدمت رسول الله عشر سنين فمـا قال لى « أف » قط ، وما قال لشىء صنعته لم صنعته ولا لشىء تركته لم تركته .

وكان آية فى الحلم ، تقول عائشـة : كان بينى وبين رسـول الله كلام فقال : من ترضين أن يكون بينى وبينك ، أترتضين بأبى عبيده بن الجراح ،

قالت : لا ، فذلك رجل هين لين يقضى لك ، قال : أترضين بأبيك ، قالت : نعم ، فلما جاء أبو بكر ، قال رسول الله : أقصصى ، قالت بل أقصص أنت ، قال هى كذا وكذا ،قالت اقصد ، فرفع أبو بكر يده فلطمها ، وقال : أتقولين يا بنت أم رومان لرسول الله : أقصد ، من يقصد ، اذا لم يقصد رسول الله ، فجعل الدم يسيل من أنفى ، ورسول الله يحجز بيننا ، ويقول لأبى بكر : اننا لم نرد منك هذا وجعل يغسل الدم من ثيابى ويقول : أرأيت كيف انقذتك من الرجل .

وعندما جاء (أبو العاصى بن الربيع) خاطبا لابنته زينب ، قام النبى يسعى ، حتى دنا من غرفة « زينب » فوقف قريبا منها بحيث تسمع ولا تراه وقال :

بنيتى زينب ، ان ابن خالتك أبا العاصى بن الربيع ذكر اسمك . وعندما عاد ابا العاصى بن وائل من رحلته الى المدينة اعتقله المسلمون ، وكان لا يزال مشركا ، فقصدت زينب الى باب المسجد وهم فى الصلاة ثم صاحت بملء صوتها « ايها الناس : انى أجرت ابا العاصى بن الربيع » فلما سلم النبى من صلاته قال : أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ، قالوا : نعم ، قال : والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، وانه ليجير على المسلمين أدناهم ، وقد أجرنا من أجارت .

ثم انصرف النبى فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها وزوجها فانحنى بها ناحية وقال : أى بنيه : أكرمى مثواه ، ولا يخلصن اليك ، فأنك لا تحلين له .

وذهبت « فاطمة » يوما تسأل رسول الله خادما من السبايا بعد أن أجهدها ما كانت تكابده من المشقة ، فلم تجده ، فلما عاد ذهب اليها ، وكانت وعلى زوجها قد رقدا ، واذا بالباب يفتح ، ويقبل عليهما فيهبا للقائه ، فيقول : مكانيكما .. ألا أخبركما بخير مما سألتمانى قالا بلى .. قال فسبحان الله دبر كل صلاة .

وذهبت زوجه « صفية » تزوره فى المسجد خلال اعتكافه فى العشر الاواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة ، ثم قامت تنصرف فمضى النبى

معها ، حتى اذا بلغت المسجد عند باب (أم سلمة) اذ مر رجلان من الانصار فسلما على رسول الله ، فقال لهما النبى : على رسلكما ، هذه صفية بنت حيى .

فقـالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهمـا ما فعل رسـول الله فقال : ان الشيطان يجرى من الانسان مجرى الدم ، وانى خشيت ان يقذف فى قلوبكما شيئا .

وروى ان يهوديا كان له دين عند النبى ، فأراد أن يطلب دينه قبـل أن يحل اجله ، فاعترض النبى فى طريق المدينة ، وقال : انكم بنى عبد المطلب قوم مطل ، ورأى عمر بن الخطاب ذلك فغضب وهم بالرجل وقال : ليأذن لى الرسول أن اقطع عنقه . فقال النبى : انا وصاحبى احوج الى غير هذا منك يا عمر ، مره حسن التقاضى ، ومرنى بحسن الأداء ، ثم التفت الى اليهودى وقال : أيها الرجل : انما يحل دينك غدا .

ولما توفيت خديجه ظل رسول الله يذكرها ، تقول عائشة : ان النبى كان لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر « خديجه » ، واقبلت هاله اخت خديجه لزيارة المدينة وسمع النبى صوتها فى فناء بيته ، وكان يشبه صوت الراحلة فهتف يقول : اللهم هاله .

قيل فما ملكت عائشه أن قالت له : ما تذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين هلكت فى الدهر ، أبدلك الله خيرا منها ، فغضب النبى وقال : والله ما انت بخير منها ، ووالله ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى النـاس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء ، فجزاها الله عنى خير الجزاء ، اللهم كافىء خديجة بنت خويلد ، قالت عائشه ، والله لا اذكرها بعدها أبدا ، وقالت ، كان النبى اذا ذبح الشاه يقول : ارسلوا الى اصـدقاء خديجه ، فحدثته عائشة فى ذلك فقال : انى لأحب حبيبها .

وقدم عدى بن حاتم الطائى على الرسول ، ثم روى قصته فقال : دخلت على رسول الله فى مسجده ، قال فانطلق بى الى بيته ، فوالله انه لعائد بى اذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته فوقف لها طويلا ، تكلمه فى حاجتها ،

قال : قلت فى نفسى والله ما هذا بملك ، ثم مضى بى حتى اذا دخل بيته تناول وسادة من ادم محشوة ليفا فقدمها الى ، وقال : اجلس على هذه ، وجلس رسول الله على الأرض ، قال قلت فى نفسى ، والله ما هذا بأمر ملك .

ثم قال النبى : ايه يا عدى بن حاتم ، ألم تك ركوسيا قلت بلى ، قال او لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ، قلت بلى ، قال ان ذلك لم يكن يحل لك فى دينك ، قال أجل والله ، وقال ، وعرفت انه نبى مرسل يعلم مالا نعلم ، ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : لعلك يا عدى انما يمنعك من دخول هـذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال ان يفيض فيهم حتى لا يجد من يأخذه ، ولعلك انما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخـرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت ، لا تخاف ، ولعلك انما يمنعك من دخول فيه انك ترى ان الملك والسلطان فى غيرهم ، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم فاسلمت .

وكان النبى اذا ودع مسافرا قال له اللهم اطو له البعيد ، وهون عليه العسير وكان يقول : استودع الله دينك وامانتك وخواتيم اعمالك . فاذا عاد من السفر كبر على رأس كل شرف ثلاث تكبيرات ، وقال تائبون آيبون ان شاء الله حامدون ، لربنا عابدون ، اعوذ بالله من وعثاء السفر وكآبة المنقلب فى الاهل والمال والولد .

واذا خرج الى السفر قال : اللهم أنت الصاحب فى السفر والخليفة فى الأهل ، فاذا رأى المطر قال اللهم صـبا نافعـا واذا خاف ضرره قال : اللهم حوالينا ولا علينا واذا سمع الرعد والصواعق ، قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، واذا رأى الهلال قال الله أكبر ، اللهم اهله علينا باليمن والايمان والسلام والسلامة ، ربى وربك الله يا هلال ، هلال خير ورشد .

***

وفزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قبل الصـوت ، فتلقاهم عليـه السلام راجعا وقد سبقهم الى مصدر الصوت وقد استبرأ الخبر على فرس عرى لابى طلحه ، والسيف فى عنقه وهو يقول : لن تراعوا لن تراعوا .

(٢)

قال النبى : اتيت جوامع الحكم واختصرت لى الحكمة اختصارا .

قالت السيدة عائشة : لم يكن رسول الله يسرد كسردكم هذا . كان يتكلم بكلام بين فصل لوعده العاد لأحصاه .

وفى جولة حول احاديثه وكلماته نستطيع ان نرسم صورة تكشفجوهر شخصيته يقول : الصلاة أرحنا بها يا بلال ، اذا صليت فصل صلاة مودع لنفسه ، مودع لهواه ، سائر الى مولاه ، من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحزافيرها ، ليست الزهادة فى الدنيا تحريم الحلال ولكن أن تكون بما فى يد الله أوثق مما فى يدك ، الناس كأبل مائة لا تجد فيها راحلة ، الدال على الخير كفاعله ، المؤمن مرآة أخيه ، المستشير معان ، والمستشار مؤتمن ، المرء على دين خليله فلينظر امرؤ من يخالل ، أحب العباد الى الله الاتقياء الاصفياء الذين اذا غابوا لم يفتقدوا واذا حضروا لم يعرفوا ، ان العفو لا يزيد العبد الا عزا فاعفوا يعزكم الله ، وان التواضع لا يزيد المال الانماء ، فتصدقوا يزدكم الله . استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فان كل ذى نعمة محسود ، ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ، ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، الرجل احق بصدر دابته ، وصدر مجلسه ، وصدر فراشه ، ومن قام عن مجلسه ورجع اليه فهو أحق به ، انما احدكم مرآة اخيه ، فاذا رأى اذى فليمطه عنه واذا اخذ احدكم على اخيه شىء فليقل « لا بك السوء وصرف عنك السوء » اعمل لله باليقين فى الرضا ، فان لم يكن فان فى الصبر خيرا كثيرا ، والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها ، من عظمت نعمة الله عنده ، عظمت مؤونة الناس عليه ، الا أنبئكم بشرار الناس من نزل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده ، ألا أنبئكم بشر من ذلك ، من لا يقيل عثرة ، ولا يقبل معذرة ، ولا يغفر ذنبا ، الا أنبئكم بشر من ذلك ، من يبغض الناس

ويبغضونه ، انما آنا بشر ، وانه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن من بعض ، فى سر حجته ، فأحسب انه صـدق ، فاقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فانما هو قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها .

وقال للرجل الذى اصابته رعدة عندما لقيه : هون عليك فانى لست بملك، انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

ويقول : من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ (يمد) له فى أثره فليصل رحمه ، اتقوا دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب ، رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى (طالب بدينه) ان لربك عليك حقا ،ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فاعط كل ذى حق حقه ، ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، رجل اعطى بى ثم غدر (اعطى عهدا) ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر اجيرا فاستوفى منه ولم يعطه اجره ، ومن كان فى حاجة اخيه ، كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربه ، فرج الله عنه كربه يوم القيامة .

ان ابغض الرجال الى الله الالد الخصم ، حق الطريق كف الاذى وغض البصر ، ورد السلام ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، الا انبئكم بأكبر الكبائر : الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقول الزور . لا يمل الله حتى تملوا ، وأحب العمل الى الله ما داوم عليه صاحبه ، « الاحسان » ان تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك ، لا يقضين احدكم بين اثنين وهو غضبان ، ولا يقيم الرجل من مجلسه ويجلس فيه ولكن تفسحوا أو توسعوا ، واذا كأن ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر ، ويسلم الصغير على الكبير ، والمار على القاعد ، والقليل على الكثير ، ليس الشديد بالصرعة ، وانما الشديد من يملك نفسه عند الغضب ، ما اكتسب ابن آدم أفضل من عقل يهديه الى هدى أو يرده عن ردى . وانك لن تنفق نفقة تبغى بها وجه الله ، الا أجرت عليها حتى ما تجعل فى فم زوجتك .

أوصانى ربى بتسع اوصيكم بها : اوصانى بالاخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن اعفو عمن ظلمنى ،واعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وان يكون صمتى فكرا

ونطقي ذكراً ونظري عبره ، وان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم .

وقال ان البر حسن الخلق ، والاثم ماحاك فى صدرك وكرهت ان يطلع عليه الناس ولا يتمنين احدكم المــوت لضر نزل به ، فان كان ولابد فليقل : اللهم احينى ما كانت الحياة خيرا لى وامتنى ما كان الموت خيراً لى .

وقال لفاطمه (ابنته) سلينى ما شئت من مالى ، لا اغنى عنك من الله شيئا ، وقال له أحــد الوافدين : انت سيدنا قال النبى : السيد الله قولوا قولكم ولا يستخزينكم الشيطان .

ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسدت فسد الجسد كله ، الا وهى القلب ، ان دماءكم واموالكم واعراضكم بينكم حرام ، يسروا ولا تعسروا ، بشروا ولا تنفروا ، من خلصت نيته كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ان المؤمن ليدرك بحسن خلقه ، درجة الصائم القائم ، ومن كان اخوه تحت يده (الخــادم) فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه ممــا يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فاعينوهم ، سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل الا ظله : امام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجــلان تحــابا فى الله اجتمعا عليــه وافترقا عليــه ، ورجــل ذكــر الله خــاليا ففاضت عينــاه ، ورجــل طلبته ذات منصب وجمــال فقال : انى أخاف الله ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، صنفان من امتى اذا صلحوا صلح الناس ، واذا فســدوا فسد الناس ، العلمــاء والامراء ، انما الصبر عند الصدمة الاولى ، اليد العليــا خير من السفلى ، وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة عن ظهر غنى ، ومن يستعف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله .

وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر ، فى كل كبد رطبة أجرا ، لو أنفاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ، لا حسد الا فىاثنتين : رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه اناء الليل وأناء النهار ورجل أتاه الله مالا فهــو يهلكه فى الحق ومــا تم ايمــان عبــد ، ولا اســتقام امره حتى يكمل

عقله ، انما لك من مالك ما اكلت فافنيت ، أو تصدقت فأمضيت او لبست فأبليت ، وما من مسلم يصيبه اذى الا تحاتت عنه خطاياه كما يتحات ورق الشجر ، لاعدوى و لاطيرة ولا هامة ولا صفر ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذين جاره ، وليكرم ضيفه ، وليقل خيرا أو يصمت . لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر اخاه فوق ثلاث ، إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ، كل امتى معافى الا المجاهرون (بالمعصية) ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه .

ويقول : لا يكن أحدكم امعة ، يقول أنا مع الناس ان أحسن الناس احسنت وان اساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم أن أحسن الناس أن تحسنوا وان اساءوا ان تتجنبوا اساءتهم .

كلمات الصحابة

من هذه المنابع التى ترسمها حياة النبى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وكلماته ، هذه الحياة والكلمات التى استمدت جوهر فكرها من « القرآن الكريم » ، تتكشف معالم الفكر العربى الاسلامى فى صورته الاولى وهى تنمو وتنداح وتتسع من خلال مجموعة من الصحابة الذين امنوا بالاسلام واتبعوا النبى ، وفى خلال هذه السنوات التى تلت الدعوة الى الدين الجديد برزت لوحة جديدة لها طابع وطراز يتمثل فى ابى بكر وعمر وعثمان وعلى وخالد وسعد بن أبى وقاص وعائشة وعبد الله بن عباس وعمرو بن العاص وغيرهم .

(١)

فالصديق ابو بكر يرسم بحياته وكلماته صورة الايمان واليقين ، « أنظر ما تقول ومتى تقول ، ان الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة » ان عليك من الله عيونا تراك ، ان الله قرن وعده بوعيده ، ليكون العبد راغبا راهبا ، كنا ندع سبعين بابا من الحلال مخافة ان نقع فى الحرام ، اكيس الكيس : التقى واحمق الحمق : الفجور ، انما انا متبع ولست بمبتدع ، صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، احرص على الموت توهب لك الحياة ، اذا فاتك خير فادركه ، واذا ادركك شر فاسبقه ، اتقوا دعوة المظلوم ، اصلح نفسك يصلح لك الناس ، اياكم والفخر ، ما فخر من خلق من التراب ، والى التراب يعود ، ليكن الابرام بعد التشاور ، والصفقة بعد طول التناظر ، اضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه واقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، اتدرون أى ذنب اسرع عقوبة : البغى وقطع الرحم .

وفى دعائه : اللهم أنت اعلم منى بنفسى ، اللهم اجعلنى خيرا مما يحسبون ، واغفر لى مالا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون وفى وصية الحرب : اذا حاصرت أهل حصن فارادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا

تفعل ، واجعل لهم ذمتك وذمة اصحابك ، فانكم ان تخفروا ذممكم ، أهون من ان تخفروا ذمة الله ورسوله ، واذا حاصرت أهل حصن وارادوك أن تنزل على حكم الله فلا تنزل على حكم الله ، وانزل على حكمك فانك لا تدرى أن تصيب فيها حكم الله أم لا .

وكلمته الى المحاربين : لا تخونوا ، لاتغدروا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفـلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تحرقوا نخلا ، ولا تقطعوا شـجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شـاة ، ولا بقرة ولا بعيرا ، وستمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

ذلك هو ابو بكر أول مسلم وصاحب رسول الله فى الهجرة ورفيقه فى الغار ، اعتق سبعة من الموالى والعبيد اشتراهم بمـاله منهم بلال وعامر بن فهيرة ، وأحضر للرسول ماله كله ، فلما سأله النبى : ماذا ابقيت لعيالك قال : ابقيت لهم الله ورسوله . وعندما اذاع النبى نبأ (الاسراء والمعراج) ورحلته الى السماء ، خف اليه بعض الناس يسألونه قبل ان يلقى النبى فما لبث أن أجاب « ان كان قال لقد صدق ، انى أصدقه فيما أبعد من هذا ، أصدقه فى خبر السماء » .

ولقد وصفه النبى فقال : ما لأحد عندنا يد الا وقد كافأناه ما خلا ابا بكر ، فان له عندنا يداً يكافئه الله عز وجل بها يوم القيامه ، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال ابى بكر ، ولو كنت متخذا خليـلا لاتخذت ابا بكر خليلا ، انى لا أعلم أحدا كان أفضل فى الصحبة عندى يدا منه .

ودعاه الى الصلاة فى مرضه ، ولما اختار رسول الله الرفيق الأعلى قبله ابو بكر وهو مسجى وقال : ما أطيبك حيا وما اطيبك ميتا ، وكان أبو بكر انسب قريش لقريش ، اشتغل بتجارة الثيـاب ، وبلغ رأس ماله أربعين ألف درهم ، واختاره المسلمون فى بيعة السقيفة خليفة وفرضوا له ثلاثمائة دينار وشاه ، فما لبث أن وضع دستور الحكم ، فقال : لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى ، الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخـذ الحق منه ، وجمع القرآن واستخلف عمر بن الخطاب بوثيقة وعهد .

(٢)

وتبدو صورة عمر بن الخطاب وكلماته زاهية مشرقة :

« لو كنت تاجرا ما اخترت على تجارة العطر شيئا ، ان فاتنى ربحه لم يفتنى ريحه » .

ومن قوله : انما مثل العرب مثل جمل أنف اتباع قائده ، فلينظر قائده حيث يقود ، أما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق ، اذا سألتمونا حاجة فعاودونا فيها فانما سميت القلوب لتقلبها ، تفقهوا قبل ان تسودوا ، أقلل من الدين تعش حرا ، فى العزلة راحة من خليط السـوء ، آخ الاخوان على التقوى ، من قل ورعه قل حياؤه : لا تؤخر عمل يومك الى غدك ، اشقى الولاة من شقيت به رعيته ، ارووا الاشعار فانها تدل على الاخلاق ، حسن الاخلاق خير قرين الاجتهاد خير بضاعة ، الأدب خيـر ميراث ، من مازح استخف به ، اقتصاد فى سنة خير من اجتهاد فى بدعة ، لا تطلبن حاجتك الى من لا يحب لك نجاحها ، ما من أحد عنده نعمـة الا وجدت لها حاسـدا ، انتهى عجبى عند المرء يفر من الموت وهو لاقيه ، توفيق قليل خير من مال كثير ، لا تصغرن همتك ، فانى لم أر أقعد بالرجل من سقوط همته ، المرء حيث يجعل نفسه ان رفعها ارتفعت وان قصر بها اتضعت .

ومن قوله : الرجال ثلاثة ذو عقل ورأى فهو يعمل به ، ورجـل اذا حزبه أمر اتى ذا رأى فاستشاره ، ورجـل حائر بائر ، لا يأتى رشـدا ولا يطيع مرشدا ، من كتم سره كان الخيـار فى يده ، أعقل النـاس أعذرهم للناس ، من لم يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيـه ، اشكو الى الله ضعف الأمين وخيانة القوى ، لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفا ، السيد هـو الجواد حين يسأل ، والحليم حين يستجهل ، والبـار بمن يعاشر ، جاهدوا أنفسكم كما تجاهدون أعدائكم ، ليس العاقل من عرف الخير من الشر ، بل

العاقل من عرف خير الشرين ، قيل له : ان فلانا لا يعرف الشر ، قال : ذلك أحرى أن يقع فيه ، وسمع رجلا يقول أتبيعهذا الثوب قالالرجل: لا عافاك الله قال عمر : لقد علمتم لو تعلمون : قل لا ، وعافاك الله .

ومن قوله : ان الله اذا أحب عبداً حببه الى خلقه ، فاعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك عند الناس ، ثلاث تثبت لك الود فى صدر أخيك ، ان تبـدأه بالسلام ، وتوسع له فى المجلس وتدعوه باحب الاسماء اليه ، ليس لك الا ما اعطيت فأمضيت ، أو لبست فابليت ، أو أكلت فافنيت .

لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقـول اللهم ارزقنى وقد عـلم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضه ، من اتجر فى شيء ثلاث مرات فلم يصب منه فليتحول الى غيره ، خذوا بحظكم من العزلة ، حاسبوا أنفسـكم قبـل أن تحاسبوا ، اذا رأيتم اخا لكم فى ذلك فسددوه ، ووفقوه ، وادعوا الله ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه .

وفى حديثه مع أحد القضاة : آس (سـو) بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك (جـورك) ولا ييأس ضعيف فى عدلك ، البينة على من أدعى ، واليمين على من أنكر ، الصـلح جائز بين المسلمين الا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما ، المسلمون عدول بعضهم على بعض ، الا مجلودا فى حد ، أو مجربا فى شهادة زور ، اياك والقلق والضجر والتأذى بالناس .

ويقول : لو ماتت شـاة بشاطىء الفرات لظننت ان الله سائلى عنها يوم القيامة . وكان يقول دوما : رحم الله امرأ أهدى الينا عيوبنا .

ذلك هو عمر الخليفة الثانى القوى الصارم ، الجرىء العادل ، الزاهد المهيب الذى كان يعلن رأيه فى صراحة ، ولطالما نزل الرسول على رأيه ، نصر الاسلام بانضمامه اليه ، وضاعف العقوبة لاهله عندما ولى الخـلافه واقام الحد على ابنه حتى بعد موته ، وحمل الدقيق على كتفه للمرأة التى لم تجد ما تطعم به أولادها ، وأحصى ثروات الولاة واقتسمها معهم ، وعزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وهو فى أوج نصره وقال : خشيت أن يفتن الناس به ، وبعث من حرق باب والى الكوفة وقال : انه لا يجوز لبيت الوالى أن

يكون له باب ، وعس الليل وكشف عجلة الأم فى فطام ابنها ليكتب فى بيت المال ، وفى ابان الحرب كان يمــر على البيوت يقرأ الرسائل الواردة . ويقضى لاهلها الحاجات ، ويذهب فيحرس التجار خارج المدينة بالليل ، وفى عام الرمادة امتنع عن طعام غير الزيت ، وخفق الرجل المتجبر بالدرة ، كمـا خفق المصلى المفتعل الخشوع .

ما هاجر مهاجر الا متخفيا الا عمر بن الخطاب فانه لما هم بالهجره تقلد سيفه ، ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا متمكنا ، ثم أتى المقــام فصلى ، ثم وقف على الخلق واحدة يقــول لهم : شــاهت الوجوه ، من اراد ان تثكل امه أو يؤتم ولده ، أو يرمل زوجه فليلقنى وراء هذا الوادى .

وكان اذا استأذن الرسول وعنده نساء من قريش يكلمنه ، ابتــدرن بالحجاب خوفا منه ، وقد وصــفه الرســول فقال : ان الله جعــل الحق على لسان عمر وقلبه .

ومن قوة شخصيته انه اعترف بخطئه عندما وقف يقول : لا تزيدوا مهور النساء على اربعين اوقيــة . قالت امرأة : ان الله يقــول : « وآتيتــم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا » قال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وكان بعيد النظرة ، اكسبته الحياة خبرة وتجربة ، قال رجل له : ان فلانا رجل صدق ، قال ، هل سافرت معه ، او ائتمنته ، قال لا : فقال عمر : لعلك رأيته يرفع رأسه ويخفضه فى المسجد .

وكان يكره المغالاه فى العبادة ، واضحا فى ايمــانه ، وكان الى ذلك يحب الشعر والغنــاء ، روى انه بينما كان متجها الى مكة فى جوف الليل سمع صوتا يغنى فما زال يوضع راحلته حتى دخل بين القوم يسمع الى مطلع الفجر ، ثم قال للقوم : ايه لقد طلع الفجر ، اذكروا الله .

ولما ولى الخلافة صعد المنبر فقال : اللهم انى غليظ فلينى لأهل طاعتك بموافقة الحق ، وارزقنى الشدة على اعدائك وأهل النفاق ، اللهم انى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير .

وكان يشغله أمر الولاة ويقول لاصحابه : دلونى على رجل استعمله ، قالوا : وما شرطك فيــه ، قال اذا كان فى القــوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، واذا كان أميرهم كان كأنه رجــل منهم ، وقال يوما لمن حــوله : أرايتم لو استعملت عليكم خير ما اعلم ثم امرته بالعدل اكنت قضيت ما على قالوا : نعم ، قال لا ، حتى انظر فى عمله ، اعمل بما أمرته ام لا .

(٣)

ويرسم « على بن أبى طالب » صورة أخرى : صورة الزهــد وبطولة الحرب وعباراته تعطى اعماق نفسه ودوافعها :

« لا يصدق ايمان المرء حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده ، الغالب بالشر مغلوب ، الاستغناء عن العذر اعز من الصدق به ، أفضل الاعمال ما أكرهت نفسك عليه ، احذروا نفار النعم فما كل شارد بمردود ، من اراد الغنى بغير مال والكثرة بلا عشيره فليتحول من ذل المعصية الى عز الطاعة ، أبى الله الا ان يذل من عصاه ، ومن ائتمن الزمان خانه ، ومن تعظم عليه هانه ، والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك ، فان لم تآته أتاك ، سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار ، لا يرجون احدكم الا ربه ، ولا يخافن الا ذنبه ، ولا يستحى اذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم ، واذا لم يعلم شيئا أن يتعلمه ، ان الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فاذا قطع الرأس ذهب الجسد . ومن عمل لآخرته كفاه الله امر دنياه ، ومن اصلح ما بينه وبين الله اصلح الله ما بينه وبين الناس ، ومن اخلص سريرته اخلص الله علانيته .

ويقول : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد ، نفس دائم ، وعقل هائم ، وحزن لازم ، ان قيمة كل امرىء ما يحسنه ، توق ما تعيب ولا تعب ما تأتى ، انما يستحق السعادة من لا يصانع ولا يخــادع ولا تغره المطامع ، أجموا (اريحو) هذه القلوب والتمسوا لها طريق الحكمة ، فانها تمل كمــا تمل الأبدان ، من لانت كلمته وجبت محبته ، ومن قوله : البخل عار والجبن

منقصة والفقر يخرس الفطن عن حجته ، والمقل غريب فى بلدته ، والفقر آفة ، والصبر شجاعة ، والزهد ثروة ، والورع جنة ، والفكر مرآة صافية ، اذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره ، واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه ، خيار خصال النساء شرار خصال الرجال : الزهو والجبن والبخل ، صدر العاقل صندوق سره ، والبشاشة حبال المودة ، الغالب بالشر مغلوب ، من أعطى الدعاء لم يحرم الاجابة ، ومن أعطى التوبة لم يحرم القبول ، ومن أعطى الاستغفار لم يحرم المغفرة ، ومن أعطى الشكر لم يحرم الزيادة .

ومن قوله : بين السماء والأرض مسيرة ساعة لدعوة مستجابة .

ذلك هو على بن ابى طالب الذى ربى فى أحضان الاسلام الأول ، فكان ثالث ثلاثة دخلوا الدين الوليد « محمد وخديجه وعلى » خاض المعارك كلها الى جوار الرسول ، ونام فى فراشه ليلة الهجرة ، وكتب عقد الحديبية ، وتلا صدر براءة فى العام الذى حج فيه ابو بكر بالناس ، أحبه الرسول وآخاه بنفسه مرتين ، وزوجه من ابنته فاطمة بعد الهجرة ، وأرسله فى أثر القوم بعد «أحد» ، لم يصارع احدا الا صرعه ، وفى موقعة «خيبر» امتنع حصن «مصياف» على المسلمين فأعطى الرسول الراية لعلى ففتح الله له ، قبل « قضية ولا ابا حسن لها » ، كان مستشار ابى بكر وعمر وعثمان . ولى الخلافة والفتنة مضطربة ، فحارب طلحة والزبير وعائشة فى موقعه الجمل وحارب معاوية فى موقعة صفين وانتصر فى الأولى ، وكاد ينتصر فى الاخرى لولا الخدعة وارغامه على قبول التحكيم . وهو صاحب « نهج البلاغه » فى قول مرجح ، كان يقول : سلونى عن كتاب الله ، فوالله ما من آية والا وانا أعلم أنزلت بليل أم نهار ، فى سهل أوجبل . وكان يردد دائما قوله: الا أنبئكم بالفقيه حق الفقه ، من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم من معاصى الله ولم يؤمنهم من مكر الله » ، وكان جريئا على الموت ، لم يبال البحر ولا البر ، خرج « لعمرو بن ود » فى معركة الخندق عند ما نادى : هل من مبارز فلما رآه عمرو ، قال له : ان من اعمامك من هو اشد ، وانى أكره ان أريق دمك ، قال له على : ولكنى والله لا أكره أن أريق دمك ، فهوى عليه بسيفه فتلقاه فى درقته ، ثم مال عليه على فقتله .

(٤)

وكانت « لعائشة » رضى الله عنها فى محيط الصحابة صورة وكلمة ، « فضلت على نساء النبى بعشر ، لم يتزوج بكرا غيرى ، ولا امرأة ابواها مهاجران غيرى ، وانزل الله برائتى من السماء ، وجـاء جبريل بصورتى من السماء فى حريرة ، وكان يصلى وانا معترضة بين يديه دون غيرى ، وقبض وهو بين سحرى ونحرى » وروى عن أبى موسى الاشعرى قوله : ما اشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة الا وجدناه عندها ، وقال عطاء بن رباح : كانت افقه الناس وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأيا ، وقال مسروق الهمزانى : رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض ، وقال عروة ابن الزبير : ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ، وكانت تقول : جبلت القلوب على حب من أحسن اليها ، وبغض من أساء اليها .

وتصور حياتها مع رسول الله فتقول : كان السـودان يلعبون فى أيام العيد بالدوارق والحراب ، فقال النبى ، ان كنت أشتهى أن أنظر ، قلت نعم ، قالت فاقامنى وراءه ، وهو يقول : دونكم بنى أرفده ، حتى اذا مللت قال : حسبك ، قلت نعم ، قال فاذهبى !

وتقول خرجت مع النبى فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أكن أحمـل اللحم ، فقال للناس : تقدموا ، تقدموا : ثم قال لى : تعالى أسابقك ، فسابقته فسبقته ، فسكت حتى اذا حملت اللحم ، وكنا فى سفرة أخرى ، قال للناس : تقدموا ، ثم قال : تعالى أسابقك فسابقته فسبقنى ، فجعـل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك .

تلك عائشة زوج النبى وابنة الصديق ، تزوجها النبى بعد وفاة خديجة وأحبها ، وكان لها عليه دالة وجرأة ، وفى خلال أحد عشر عاما امضتها فى النبوة ، فهمت الحياة ، وحفظت القرآن ، وتفقهت فى الدين ، ولم يفتها

مجلس من مجالس الرسول ، ووقع لها حادث الافك حين انفصلت عن الركب باحثة عن عقدها ، واستغل ذلك خصوم النبى وقابلت عائشة الأمر فى تحدى الواثق من البراءة ، وصدق الوحى برائتها ، واقتحمت ميدان السياسة بعد أن اختار النبى الرفيق الأعلى ، وخرجت فى عشرين الفا فى حرب طاحنة ، وكانت خطيبة بارعة ، فصيحة ، ذات صوت جهورى وعاشت ستين عاما .

(٥)

وعبد الله بن عباس من خريجى مدرسة محمد ، كان يحمله رسول الله وراءه على دابته ويعلمه الكلمات « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله ، فان الامة لو احتمعت على أن ينفعوك بشىء ، لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعوا على أن يضروك بشىء لايضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الاقلام وجفت الصحف » .

وكان عبد الله فقيها ، يقول : انى لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل فى حكمه فاحبه ، ولعلى لا اقاضى اليه ابدا ، وانى لاسمع بالغيث يصيب البلد من بلدان المسلمين فافرح به وما لى بها سائمة ولا راعية ، وانى لآتى على آية من كتاب الله فوددت لو أن المسلمين يعلمون منها مثل ما أعلم . كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأك اثنتان : سرف ومخيله ، الشجاع من يقابل من لا يعرفه والجبان يفر من عرسه ، والجواد يعطى من لا يلومه حقه ، وقد وصف مسروق شمائل عبد الله بن عباس فقال : اذا رأيته قلت أجمل الناس واذا نطق قلت أفصح الناس ، واذا تحدث قلت أعلم الناس ، جميل النفس عالى الخلق متواضعا من غير ضعف ، وحكى الشعبى فقال : ركب (زيد بن ثابت) فدنا منه عبد الله بن عباس فأخذ بركابه ، فقال : لا تفعل يا ابن عم رسول الله فقال : هكذا أمرنا ان نفعل بعلمائنا ، ومن قول ابن عباس : انه كان ليبلغنى الحديث (من احاديث النبى) عن رجل فآتى بابه ، وهو قائل (من القيلولة) فأتوسد ردائى على بابه ، يسفى الريح من التراب فيخرج

فيرانى ، فيقول : يا ابن عم رسول الله ما جـاء بك ، هلا أرسلت فاتيناك ، فأقول . لا ، أنا أحق أن آتيك فأسألك .

ويقول : عجبا لمن يطلب امرأ بالغلبة وهو يقدر عليه بالحجة ، فالحجة دين تعقد به الطاعة وسلطان الغلبة يزول بزوال القدرة ، ويقول : كفـاك من علم الدين ان تعرف مالا يسع جهله ، وكفاك من علم الادب ان تروى المشاهد والمثل ، ويردد دائما : لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع اصرار .

* * *

وتتمثل جوهر الفكر العربى الاسـلامى فى احاديث عديدة لصـحابة رسول الله : يقول (عمرو بن العاص) : ما استودعت رجلا سرا فافشاه فلمته لأنى كنت أضيق صدراً منه حين استودعته اياه .

ويقول (سعد بن ابى وقاص) : يا بنى اذا طلبت الغنى فأطلبه بالقناعة ، فانها مال لا ينفذ ، واياك والطمع ، فانه فقر حاضر ، وعليك باليأس عمـا فى ايدى الناس ، فانك لا تيأس من شيء قط الا اغناك الله عنه .

وكان (معاويه) يقول : العقل مكيال ، ثلثه فطنة ، وتلثاه تغافل ، الزم الرفيعين : الأمانة والعدل ، قال له رجل ، سالتك بالرحم الذى بينى وبينك ، قال معاويه : أمن قريش انت قال لا ، قال فمن سائر العرب ، قال لا . قال : فأية رحم بينى وبينك ، قال : رحم آدم ، قال معـاوية : رحم مجفوة والله لأكونن أول من يصلها .

كلمات المجاهدين

يرسم « الفكر العربى الاسلامى » صورة ضخمة للمجاهدين ، من خلال « الكلمة » فليس من شأننا أن نعرض هنا قصة الجهاد وسيرة المجاهدين فى ذلك التاريخ الطويل الممتد فى حروب النبى وفتوحات الاسلام ، ولكنها كلمات تلقى الضوء الكاشف ..

وقف النبى يسأل الأنصار رأيهم قبيل موقعة بدر : وكانوا قد عاهدوه على نصرته داخل مدينتهم (يثرب) ، فقال : سعد بن معاذ « يا رسول الله قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، وانا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك .

***

وتتمثل شمائل البذل والتضحية وانكار الذات فى عدد من الصور التى تكشف عن نموذج جديد من الناس تكون بالكلمة القرآنية ، والكلمة النبوية ، واذا سعد بن أبى وقاص قد سجن أبا محجن الفارس البطل لشربه الخمر وقد جاء يوم القادسية وهو فى قيده ينظر من سجنه ، فلما رأى ميمنة جيش المسلمين تضعف ، انطلق من عقاله ، وركب البلقاء فرس سعد ، وكان سعد منبطحا على وجهه أمام مكان عال يطل على المعركة ويرمى بالرقاع ، واندفع « أبو محجن » يزلزل كالصواعق وينصر المسلمين ، فنظر سعد وعجب وقال :

يالله ، الضرب ضرب أبو محجن ، وهذه هى البلقاء ، ولولا أنه فى محبسه لظننت أنه هو ، فلما انتهت الموقعة ، عاد أبو محجن متسللا ، فوضع

نفسه فى القيد ، فأرسل اليه سعد وعلم انه هو فقـــال له : والله لن اضربك الحد أبدا فقد نصرت اليوم الله والمسلمين فانبرى له ابو محجن يقول : وانا والله لن أشربها أبدا (أى الخمر) لقد كنت أشربها أنفة حتى لا تقول العرب انى أخاف الحد ، وانا اليوم أتركها رغبة فى أن يقولوا خاف الله .

وعندما ظهر طاعون عمواس بين المسلمين فى الشام ، ارسل عمر بن الخطاب الى أبى عبيـــدة الجراح يحتال عليه ليرده الى المدينة ، فكتب اليه يقول : انه قد عرضت حاجة عندنا لا غنى فيها عنك ، فاذا اتاك كتابى فانى أعزم عليك ان اتاك كتابى ليلا ان لا تصبح حتى تركب ، وان اتاك نهاراً ان لا تمسى حتى تركب الى ، فلما تلقى الخطاب قال : قـــد عرفت حاجته ، يرحم الله عمر ، انه يريد ان يستبقى ما ليس بباق ، وأرسل الى عمر يقول : لقد عرفت حاجتك التى عرضت لك فخلى عن عزمك ياأمير المؤمنين فانى انى جندى ولا أرغب بنفسى .

***

وتلك صورة تروع وتأسر ، فقد حاصر مسلمة بن عبد الملك حصنا فى معركة فتح دمشق فندب الناس الى (نقب) منه فما تقدم اليه أحد ، كان كل من يتقدم يواجهه سيل من النبال فيرتد ، وفجأة تقـــدم رجل نحيل وقد اندفع على فرسه لا يبالى وقع السهام عليه ، حتى دخل النقب وفتح الباب للمسلمين .

فلما انتهت الموقعة ، نادى مسلمة يسأل عن صـــاحب النقب فلم يجبه أحد ، عندئذ هدد وتوعد ، وبعد قليل تقدم رجـــل نحيل ضامر الى خيمـــة الأمير ، وقال للقـــائد : لو عاهدتنى على أن لاتسألنى عن اسمى فأنا أدلك على صاحب النقب ، قال مسلمة : اعاهدك .. قال : انا هو ، ثم قام وخرج من الخيمة وذاب فى غمار الجيش ، فكان مسلمة لا يصلى بعدها صـــلاة الا يقول فى دعائه ، اللهم احشرنى مع صاحب النقب .

وعندما وصل (سعد بن ابى وقاص) الى شاطىء دجلة ، فى طريقه الى فتح المدائن على الشاطىء الآخر للنهر ، حيث قصر كسرى الأبيض فى عظمته وبهائه ، كان الفرس قد أبعدوا كل وسائل النقل ، وانتهى الرأى الى ان يعبر

رجاله على خيولهم ، وتقدم عاصم بن عمر ، ومعه ستمائة من أهل النجدة ، فساروا حتى بلغوا الشاطىء ، يريدون ان يعبروا اولا ليحموا الشاطىء الآخر، فلما وجد بعض رجاله يترددون ، تلا قول الله تعالى : « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » فلما رأى القعقاع بن عمرو الكتيبة الأولى تتقدم فى سبحها ، ونظر فرأى الفرس فى الجانب الآخر يتأهبون لردها ، أمر سائر أصحابه الستمائة فدفعوا خيولهم الى النهر فدخلوه كما دخله عاصم وأصحابه ، وتولى الفرس العجب لهذا الصنيع ، فلما رأو عاصما واصحابه يتوسطون النهر ، فارسلوا فرسانهم ليمنعوهم من الخروج وليقاتلوهم فى الماء ، ورأى عاصم ذلك فقال لأصحابه : الرماح ، الرماح ، اشرعوا وتوخوا العيون ..

وخرجت كتيبة الاهوال سالمة ..

***

وعندما بلغ (قتيبة بن مسلم) حدود الصين على رأس جيش كثيف ، أرسل الى ملكها وفدا ، فاعاده الملك ساخرا ، وقال له : قولوا لصاحبكم ينصرف فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، والا بعثت عليكم من يهلكهم ، قال هبيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا وغزاك ، أما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فاكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه هنالك بعث اليهم الملك بتراب بلاده ليطؤ قائدهم وبعض أولاده ليختمهم .

***

وعندما علم (عمرو بن الجموح) وكان اعرجا ان أبناءه خارجون للقتال فى سبيل الله ، خرج يسبقهم ، فوقفوا جميعا فى وجهه يصدونه عن ذلك ، ويقولون : اما نكفيك ، نحن نجاهد عنك ، ان الله يعذرك لعرجتك ، فصاح فيهم : ما بالكم تمنعونى أن ادخل الجنة ، وذهب الى النبى يسأله دعوة الشهادة ، فلما دعا له الرسول رفع يديه وقال : اللهم لا ترجعنى الى اهلى خائبا ، ثم سأل النبى فقال : اذا استشهدت فى سبيل الله أدخل الجنة بعرجتى ، هذه ، فقال النبى : بل تدخل الجنة صحيحا ، فذهب يقاتل حتى

استشهد ، فقال النبى ، والله لكأنى أرى عمرو بن الجموح يمشى بعرجتـه هذه سليما فى الجنة .

وسأل « المقوقس » عن المسلمين عند فتح مصر فقال له أحد رجاله : رأيت قوما الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع احب اليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهم ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم ، ولا السيد من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد ، يغسلون اطرافهم بالماء ، ويخشعون فى صلاتهم .

وعندما استشهد لهند بنت عمرو بن حزام فى موقعة أحد زوجها واخاها وابنها قالت :

اما رسول الله فصالح ، وكل مصيبة بعده جلل ، وعنـدما ولى ابو بكر (عمرو بن العاص) قيادة الجيش ، قال عمرو : انى سهم من سهام الاسلام ، وانت بعد الله الرامى بها ، والجامع لها ، فانظر أشدها واخشاها وافضلها فارم بها شيئا ان جاءك من ناحية من النواحى .

***

ومن قول (خالد بن الوليد) فى فتح الشام :

لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا ان المعونة تأتى على قدر النية ، والاجر على قدر الحسنة ، وان المسلم لا ينبغى ان يكترث لشىء يقع فيه مع معونة الله له .

أما « خالد بن الوليد » فان حديثه عجب ، عندما اراد ان يقصـد الى الشام فى جيشه لمواجهة الروم ، اختار الطريق الأقصر والأشق ، وبعث الى رافع بن عيمرة الطائى ليكون دليلا له ، فلما جاءه قال له : انك يا خالد لن تطيق ذلك الطريق بالخيل والانفال ، والله ان الراكب المنفرد يخشى عليها من نفسه ، فانها خمس ليال لا يصاب فيها ماء . قال خالد : لابد من ذلك فمر بأمرك ، قال استكثروا اذن من الماء فمن استطاع أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل ، فانها المهالك الا ما دفع الله وطلب خالد ان يجيئوه بابل سمان ، فلما جاءوه بها عمد اليها فظمأها حتى اذا بلغ بها العطش مبلغه ، اوردها الماء عللا بعد نهل ، فلما امتلأت صر اذنها وشد مشافيرها لئلا تجتر . وانطلق خالـد

بالجيش يتقدمه رافع خـلال خمسة ايام يسيرون فى وحشـة الصحراء ، وينزلون كل يوم ، فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من الماء ، ثم يشقون بطون عدد من الابل التى اتخذوها خزانات ، ويخرجون الماء منها ويسقونه الخيل ، حتى بلغوا آمنوا .

ذلك خالد الذى يقول : شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنى موضع الا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم او طعنة برمح ، ولقـد طلبت القتل فى مظانه فلم يقـدر لى الا أن أموت على فراشى حتف أنفى ، وهو الفاتح الذى لم يهزم قط فى معركة قبل الاسلام وبعـده ، وله مواقف غر خالدة ، من أبرزها مسيرته هذه بالجيش من العراق الى الشام فى مفازة لا ماء بها ، وقدعزله عمر عن رئاسة الجيش فعمل جنديا مع ابى عبيدة ، ومضى فى الفتح بنفس القوة والايمان ، ثم عزله عن الجيش ، وقال عمر : خفت ان يفتن الناس به ، فلما مات خالد لم يجد عمر عنده الا فرسا وغلاما وسلاحا ، فأخذ يبكى ويقول : رحم الله ابا سليمان كان على غير ما ظننا به ، والله لقـد كان سدادا لنحور العدو ميمون النقيبة .

ومن كلمات خالد : لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا ان المعونة تأتى على قدر النية والأجر على قدر الحسنة ، وان المسلم لا ينبغى أن يكترث لشيء يقع فيه مع معونة الله له .

***

وقد كانت وصايا الحرب مثلا عاليا للعدل والحق :

يقول ابو بكر ليزيد بن أبى سفيان عندما وجهه الى الشام : اوصيك بعشر ، لا تغدر ولا تمثل ولا تقتل هرما ولا امرأة ولا وليدا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا الا ما اكلتم ، ولا تحرقن نخلا ، ولا تخربن عامرا ، ولا تغل ولا تجبن .

وقال لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال اهل الرده :

سر على بركة الله فاذا دخلت ارض العدو ، فكن بعيـدا عن الحملة ، فانى لا آمن عليك الجـولة . واستظهر بالـزاد وسر بالادلاء ، ولا تقـاتل بمجروح ، فان بعضه ليس منه ، واقل من الكلام فانمـا لك ما دعى عنك ،

واقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم الى الله فى سرائرهم واستودعك الله الذى لا تضيع ودائعه .

وكتب عمر بن الخطاب الى سعد بن ابى وقاص :

آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال ، فان تقوى الله افضل العدة على العدو ، واقوى المكيدة فى الحرب وآمرك ومن معك الاحتراس من المعاصى منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس عددهم ، ولا عدتنا كعدتهم فان استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، والا ننصر عليهم بفضلنا ولم نغلبهم بقوتنا .

ولا تعملوا بمعاصى الله وانتم فى سبيل الله ، واسألوه العون على انفسكم كما تسألوه النصر على عدوكم . وترفق بالمسلمين فى مسيرهم ولا تجشمهم أمراً يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم ، والسفر لم ينقص قوتهم ، واقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة ، حتى تكون لهم ساحة يحييون فيها انفسهم ، ويرمون اسلحتهم وامتعتهم .

ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمم ، فلا يدخلها من اصحابك الا من تثق بدينه ، ولايرزأ أحدا من أهلها شيئا ، فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، ولا تسنصروا على أهل الحرب بظلم اهل الصلح . وليكن منك عند دنوك من أرض العدو ، ان تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع السرايا امدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم .

وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فان لقوا عدوا كان اول م اتلقاهم القوة من رأيك .

ولا تبعثن طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف عليها فيه غلبة او ضيعة او نكاية ، فاذا عاينت العدو فاضمم اليك أقاصيك وطلائعك وسراياك . واجمع اليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها معرفة اهلها بها .

كلمات الزاهدين

لم يكن الزهد فى الفكر الاسلامى العربى نوع من الرهبانية أو الانعزال عن الحياة او السلبية ، وانما هو تعميق لمفاهيم الحياة واخلاصها للحق ، وتجريدها من الغايات الفردية والمادية ومن المطامع والاهواء .

يقول (الحسن البصرى) انما الدنيا حلم والآخرة يقظة والموت متوسط بينهما ، من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن نظر الى العواقب نجا ، ومن اطاع هواه ضل ، ومن حلم غنم ، ومن خاف سلم ، ومن علم عمل ، فاذا ذللت فارجع ، واذا ندمت فاقلع ، واذا جهلت فاسأل ، واذا غضبت فأمسك ، واعلم ان افضل الأعمال ما اكرهت النفوس عليه .

***

ومن قوله : ان الله جعل الامام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف ، وهو كالراعى الشفيق على ابله ، الرفيق الذى يرتاد لها اطيب المراعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ويكنفها من أذى الحر والقر ، وهو كالأب الحانى على ولده يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم من حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ، وهو كالقلب بين الجوانح ، ومن ذلك قوله : جئنا الى هذه الدنيا غير مخيرين ، ان طوعا وان كرها ، فهز يدك بالرضا والمتابعة للأقدار أو انزعها ان شئت ، فانك على الطاعة ما انت على الكره ، وعلى الرضا ما انت على الغضب ، لسان العاقل من وراء قلبه ، وقلب الاحمق وراء لسانه ، العلم علمان ، علم فى القلب فذاك العلم النافع ، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على عباده .

وكان الحسن البصرى يقص فى جامع البصره ، فدخل الامام على فمر على الحلقات حتى انتهى الى حلقته فاعجبه كلامه فقال : يا فتى : أسألك عن

شيء ، ان خرجت منه تركتك تتكلم على الناس والا اخرجتك كما اخرجت أصحابك . قال سل يا أمير المؤمنين : قال اخبرني ما صلاح الدين وما فساده، فقال : صلاحه الورع وفساده الطمع ، قال صدقت فتكلم فمثلك يصلح ان يتكلم على الناس ، وقد كان زاهداً وهو فى نفس الوقت مجاهدا شارك فى الفتح ، وذهب الى اقصى المشرق فحضر حصار كابل وفتحها .

ودخل الحسن البصرى على عبد الله بن الاهتم يعوده فى مرضه فرآه يصعد بصره فى صندوق فى بيته ، ويصوبه ، ثم التفت الى الحسن وقال :

ابا سعيد : ما تقول فى مائة ألف فى هذا الصندوق لم اؤد منها زكاة ولم اصل بها رحما . فقال له : ثكلتك امك ، ولمن كنت تجمعها ! قال : لروعة الزمان وجفوة السلطان ومكاثرة العشيرة ، ثم لم يلبث ان مات فقال الحسن : انظروا الى هذا ، جمع ماله وخرج من الدنيا دون ان يأخذ منه شيئا .

***

ويرسم عمر بن عبد العزيز بحياته وكلماته صورة رائعة من صور الزهد، قال عندما ولى الحكم : من اراد ان يصحبنى فليصحبنى بخمس : يدلنى من العدل على ما اهتدى اليه ، ويكون لى على الخير عونا ، ويبغلنى حاجـة من لا يستطيع ابلاغها ، ولا يغتاب عندى احداً ويؤدى الامانة التى حملها منى ومن الناس .

قال عبـد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز : ما العزيمة فى الأمر ، قال اصداره اذا ورد بالحزم فقال : وهل بينهما فرق ، قال نعم : اما سمعت قول الشاعر :

ليست تكون عزيمة ما لم تكن
معهـــا من الرأى المشيد رافع

فقال عبد الملك : لله درك ، عشت دهراً وما ارى بينهما فرقا .

ومن ذلك قوله : الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده ، فاتبعه وأمر استبان ضره فاجتنبه ، وأمر أشكل عليك فتوقف عنده ، ويقول : اذا عدت المرضى فلا تنعى اليهم الموتى ، واذا كان فى القاضى خمس خصال فقد كمل ، علم بما

كان قبله ونزاهة عن الطمع ، وحلم على الخصم ، واقتداء بالائمة ، ومشاورة أهل الرأى والعلم ، وكتب الى أحد الولاة :

لا تعاقب وأنت غضبان ، واذا غضبت على أحد فاحبسه ، فاذا سكن غضبك فاخرجه ، فعاقبه على قدر ذنبه .

ولقد كان عمر بن العزيز مثلا على صورة العدل والزهد ، الغى مراسم الخلافة ورد المراكب المطهمة وطلب الى زوجته ان ترد ما معها من مال وحلى الى بيت المال ، ورد الحقوق الى أهلها وبدأ بنفسه فنزل عما ورثه من قطائع وضياع ، وبذل حياته للناس فاسعدهم ، وكان فى شبابه انيقا يتبختر فى مشيته ، ويسبل ازاره ، فلما تولى الخلافة هجر الترف وأحب الخشونة فى ملبسه ومطعمه ، وقال عن نفسه : كانت لى نفس تواقه ، فكنت لا انال شيئا الا تاقت الى ما هو اعظم منه فلما بلغت نفسى الخلافة تاقت الى الآخرة .

وقدم عليه وفد بريد من بعض الافاق فانتهى الى بابه ليلا واستأذن عليه فاذن ودعا بشمعة غليظة فاوقدت وجعل يسأله عن آهل البلد حتى اذا فرغ عمر من مسألته ، قال له الرجل : يا أمير المؤمنين كيف حالك مع نفسك وبدنك وكيف عيالك ، فنفخ عمر الشمعة فاطفأها ، وقال : يا غلام على بالسراج ، ثم قال له : سل عما أحببت ، وقال : يا عبد الله : ان الشمعة التى رأيتنى اطفأتها هى من مال المسلمين ، فكانت الشمعه بين يدى فيما يصلحهم، وهى لهم ، فلما صرت لشأنى وأمر عيالى ونفسى ، أطفأت نار المسلمين .

***

وبين يدى تاريخ الاسلام نماذج عديدة فى مجال الزهاد الذين لم تكن لمطامع الحياة رغبة تشغلهم ، وانما يدفعهم ايمان بالحق ، ومن هؤلاء (عطاء بن ابى رباح) عاش زاهدا منصرفا عن البريق والثراء والعطاء ، يدخل على الخليفة من بنى امية فيعظه ويذكره ، لقى عبد الملك بن مروان وهو يحج ذات عام فحدثه عن ابناء المهاجرين والانصار وتحصين الثغور ، وتفقد حال المسلمين وقال له « اتق الله فيمن على بابك ولا تغلقه دونهم ، فلما انتهى ، قال له عبد الملك : سألتنا حوائج غيرك وقد قضيناها ، فما حاجتك ؟ قال

عطاء : ما لى الى مخلوق حاجـه .. وكذلك عاش فقيرا ، ولكنه كان كبير النفس وكانت حلقته فى المسجد خلال عشرين عاما عامرة ، حيث تفتح افاق العلم والدين والفكر .

***

« وابو ذر » الزاهد الأول مثل من امثلة الايمان بالحق رأى الدنيـا تتفتح فدعا الى حق الله فى اموال الأغنياء .

وارسل اليه معاوية مائة ألف دينار ذات مسـاء ، فلم يصبح الصباح حتى كان قد وزعها على المعوزين فلما صلى الصبح جاءه رسول معاوية يقول : انه أخطأ فى نقل الدنانير اليه ، فأخبره أبو ذر بأنه لم يبق منها شىء .

و « ابراهيم بن ادهم » ترك بيت الملك ، ومضى يعيش من عمل يده ، فاشتغل بستانيا اجيرا ومضى يعمل عملا ايجابيا حتى لا يوصم زهده بالسلبية، وكان يتحرى طعامه ومكسبه ، ويقول : اطلب مطعمك ، ولا عليك الا تقوم الليل أو تصوم النهار .

ومقطع القول فى الزهد قول (سفيان الثورى) :
الزهد فى الدنيا ليس بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ ، ان الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد فى الدنيا وان الرجل ليكون فقيرا وهو راغب فيها .

كلمات التابعين والفقهاء

منذ نزل القرآن الكريم على لسان الرسول عليه السلام وعلى ألسنة صحابتـه والتابعين وعشرات من العلمـاء والحكماء والمجاهدين والأئمـة يرسم صورة الخلق والسلوك ويصور نموذجا للانسان الأعلى ، ذلك الانسان القـادر على الحياة والعمـل الايجـابى ، والـذى هو فى نفس الوقت عادل سمح كريم ، لا يعرف الانتهازية ولا يطمع فيما ليس فيه حق ، فالفكر الاسلامى أساسا يستمد من « القرآن الكريم » ، ذلك الينبوع الأصيل على حد قول السيدة عائشة عن رسول الله « كان خلقه القرآن » .

ولقد تحدث كثيرون عن الشمائل والأخـلاق مستمدين فهمهم من القرآن وكلمات رسول الله المضيئة ونحاول هنا ما استطعنا أن نلم بها الماما .

❊ ❊ ❊

(المعروف) يقول أبو جعفر الصادق لا يتم المعروف الا بثلاث تعجيله وتصغيره وستره .

(المروءة) يقول عبد الله بن عمر : المروءة تقوى الله وصلة الرحم وقال ربيعة الرأى : المروءة ست خصال ، ثلاث فى الحضر ، وثلاث فى السفر ، أما التى فى السفر فبذل الزاد وحسن الخلق ، ومداعبة الرفيق ، أما التى فى الحضر فتلاوة القرآن ولزوم المسجد والعفاف .

وقال المغيرة بن شعبة : المروءة العفة عما حرم الله والحرفة فيما أحل الله .

(المحبة) يقول يحيى بن معاذ : حقيقة المحبة ان لايزيدها البر ولا ينقصها الجفاء .

(الصبر) يقول الأشعث بن قيس : اذا صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، واذا جزعت جرى عليك وأنك مأزور .

(العفو) قال النعمان بن المنذر : خير العفو ما كان عن القدرة ، والرفق يمن ، والخرق شؤم .

(الشجاعة) قيل لعمر بن الاهتم : من أشجع الناس ، قال من رد جهله حلمه . وقال حكيم : الشجاعة حيلة نفس أبية .

(الورع) قال الفضيل بن عياض : الورع اجتناب المحارم .

(الطعام) قيل ليحيى بن اكثم : كم تأكل ؟ قال فوق الجوع ودون الشبع .

(البلاغة) قال الحسن بن سهل : البلاغة ما فهمته العامة ورضيته الخاصة .

(الحزم) سئل اكثم بن صيفى : ما الحزم : قال حفظ ما وليت وترك ما كفيت .

(المال) قال أبو عمرو الجاحظ : ان تثمير المال اله للمكارم وعون على الدين وتأليف للاخوان ، وان من فقد المال قلت الرغبة اليه والرهبة منه ، ومن لم يكن موضع رغبة ولا رهبة استهان الناس به ، فاجهد جهدك فى أن تكون القلوب معلقة فيك برغبة أو رهبة فى دين أو دنيا .

وقال سفيان الثورى : المال سلاح المؤمن فى هذا الزمان .

(الأناة) قال الشعبى : أصاب متأمل أو كاد وأخطأ مستعجل أو كاد .

(العقل) قيل لعمرو بن العاص : ما العقل ، قال : الاصابة بالظن ومعرفة ما يكون بما كان .

(السخاء) قيل للأحنف ما السخاء : قال الاحتيال للمعروف .

(الجود) قال صعصعة بن صحوان : الجود التبرع بالمال والعطية قبل السؤال .

(٢)

يقول الأحنف بن قيس : العتاب خير من الحقد ، من أمن الدهر خانه ، وخير القول ما صدقه العقل ، انصف من نفسك قبل أن ينتصف منك ، ولا تكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ، لست بحليم ولكنى اتحالم ، والله انى لأسمع الكلمة فأحم (من الحمى) لها ثلاثا ، وما يمنعنى من الجواب عنها الا خوفى من أن أسمع شرا منها .

الكذوب لا حيلة له ، والحسود لا راحة له ، والبخيل لا مروءة له والملول لا وفاء له . كل عز لم يؤيد بعلم الى ذل يصير .

من كان منه أربع خصال ساد قومه : من كان له دين يحجزه ، وحسب يصونه ، وعقل يرشده ، وحياء يمنعه .

***

ويقول (ابن المعتز) : الأدب صورة العقل ، اعادة الاعتذار تذكير بالذنب ، النفس أدنى عدو ، اذا تم العقل نقص الكلام ، الأمل رفيق مؤنس ، اذا لم يبغلك فقد استمتعت به ، من أحب البقاء فليعد للمصائب قلبا صبورا ، المرض حبس البدن ، والهم حبس الروح ، من تملقك فقد استصغر فطنتك ، من تجرأ لك تجرأ عليك ، العقل بلا أدب كالشجر العاقر ، لا تستبطىء الدعاء بالاجابة ، وقد سددت طريقه بالذنوب ، لله فى السراء نعمة التفضل وفى الضراء نعمة التطهير . بشر مال البخيل بحادث أو وارث ، الحازم من لم يشغله البطر بالنعمة عن العمل للعاقبة ، اذا طرت فقع قريبا ، قلوب العقلاء حصون الأسرار ، اذا قوى العقل كثر يقينه ، واذا ضعف كسر شكه .

***

وقال (الحسن بن سهل) : ان الدنيا دار ممر ، فاعملوا فيها عمل الصالحين ، وليست دار مقر فاعملوا فيها عمل الذين ينتقلون الى حياة أخرى أطول اقامة وأجزل مثوبة ، ولا تجعلوا الدنيا تغلب الآخرة ، فتندفعوا

فى المطامع والأهواء ، ولا تتركوا الآخرة تغلب الدنيا ، فتنزعوا عما أحل الله ، ولا تنصرفوا عن صراع الحياة فان صراعها شريف وكفاحها ما دام لوجه فهو عفيف ، واجعلوها ساعة وساعة ، تفكهوا ولا تقولوا الا الحق ، وجدوا ولا تكونوا صــارمين ، واقبلوا من النــاس عذرهم ، ولا تواجهوهم بالشر ، تسامحوا فى حق أنفسكم ، ولا تتسامحوا فى حق الله .

وقال (الزهرى) : عدوك ذو العقل ، ابقى عليك وارعى من الوامق « الأحمق » ويقول : اذا انكرب عقلك فاقدحه بعاقل .

ويقول (ابن شبرمة) : لايراك الله حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك .

ويقول (عبد الملك بن مروان) : كفوا الأذى ، وابذلوا المعروف واعفوا اذا قدرتم ، ولا تبخلوا اذا سئلتم ، ولا تلحفوا اذا سألتم ، فان من ضيق ضيق عليه ، ومن أعطى اخلف الله عليه .

وقال (سهيل بن هارون) القلم لسان الضمير ، اذا رعف اعلن أسراره وابان اثاره ، الصديق لا يحاسب والعدو لا يحتسب له ، العقل رائد الروح ، والعلم رائد العقل ، والبيان ترجمان العلم ، من طلب الآخرة طلبته الدنيا ، ومن طلب الدنيا طلبه الموت .

وقال له رجل : هبنى درهما فانه لا ينقص من مالك ! قالسهل : ياأخى : لقد هونت الدرهم ، ألا تدرى ان الدرهم عشر الدينار ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، وهل بيوت المال الا درهم فوق درهم .

وقال (المهلب بن أبى صفرة) : أناة فى عواقبهــا فوت أحب الى من عجلة عواقبها ظفر ، لأن أرى لعقل الرجل فضلا على لسانه أحب الى من أن أرى للسانه فضلا على عقله .

وقيل له : انك لتلقى الناس فى المهــالك ، قال : ان لم آت الموت مسترسلا أتانى متعجلا ، لست آتى الموت من حبه ، وانما آتيه من بغضه .

وقال (جعفر الصادق) : ليس كل من رأى شيئا قدر عليه ، ولا كل من قدر على شىء وفق له ، ولا كل من وفق لشىء أصاب له موضعا ، فاذا اجتمعت النية والمقدرة والتوفيق والاصابة فهنالك السعادة كلها .

ويقول (أبو عبد الله المهدى) : كن على التماس الحظ بالسكوت ، احرص منك على التماسه بالكلام ، فان البلاء موكل بالمنطق .

ويقول (وهبه بن منبه) : اتخذوا من المساكين يدا ، فان لهم دولة يوم القيامة .

ويقول (يحيى بن حيان) : الشريف اذا تقوى تواضع ، والوضيع اذا تقوى تكبر .

ويقول (أبو مدين) : اجعل الصبر رداءك والرضا مطيتك والحق وجهتك ، من تزين بزائل فهو مغرور ، الحمية فى الابدان ترك المخالفة بالجوارح ، من لم يستعن بالله على نفسه صرعته .

وقال (قيس بن عاصم) لا تشاورن مشغولا وان كان حازما ، ولا جائعا وان كان فهيما ، ولا مذعورا وان كان ناصحا ، ولا مهموما وان كان فطنا ، فالهم يعقل العقل ، ولايتولد منه رأى .

وقال (أبو المعتمد السلمى) : الناس ثلاثة : أغنياء وفقراء وأوساط ، فالفقراء موتى الا من أغناه الله بعزة القناعة ، والأغنياء سكارى الا من عصم الله وأكثر الخير من أكثر الأوساط .

وقال (أبو بكر الوراق) اذا غلب الهوى اظلم القلب ، واذا أظلم القلب ضاق الصدر ، واذا ضاق الصدر ساء الخلق ، واذا ساء خلق المرء ابغضه الخلق .

وقال (الحسن بن على) لسان العاقل وراء قلبه ، فاذا أراد الكلام رجع اليه ولسان الجاهل أمام قلبه ، يتكلم بما يعرض له .

وقال (زياد) ليس العاقل اذا وقع فى الأمر احتال له ولكن العاقل يحتال للامر حتى لا يقع فيه .

وقال (قس بن ساعدة) أفضل المعرفة : معرفة الرجل لنفسه ، وأفضل المروءة استبقاء الرجل ماء وجهه .

وقال (على بن أبى طالب) سل عن الرفيق قبل الطريق ، وعن الجار قبل الدار .

وقال (سعد بن أبى وقاص) اذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة ، فانها مالا ينفذ ، واياك والطمع فانه فقر حاضر ، وعليك باليأس مما فى أيدى الناس فانك لا تيأس من شىء قط الا اغناك الله عنه .

ويقول (واصل بن عطاء) اياك واجوبة الغضب فانها مندمة ، الشيطان يكون معها وله فى بضاعتها همزه ، وقلما شاهدت أحدا تثبت فى جوابه وما ينطق به لسانه ثم لحقه لوم .

يقول القلقشندى صاحب (صبح الأعشى) لا تلق الوديعة الا لحفاظ الودائع ، ولا تلقى الحب الا فى مزرعة لا تكدى على الزراع ، وتوخ لفرسك أجل المغارس ، وصن أسرار الحكم الا عن أهلها ، ولا تبذلها الا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحملة ، ولا تستقل أفهامهم بتقبله ، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول .

ويقول (الأوزاعى) عليك بآثار السلف وان رفضك الناس ، واصبر على السنة ، وقف حيث يقف القوم ، وقم ماقاموا ، وكف ما كفوا وليسعك ما وسعهم ، العلم ما جاء عن أصحاب محمد ، واذا أراد الله بقوم شرا فتح عليهم باب الجدل ، وسد عليهم باب العمل .

(٣)

ولا يقف جوهر الفكر الاسلامى عند هذه الملامح الكاشفة المستمدة من « القرآن » ومن الخطوط العريضة التى رسمها « محمـد » عليه الصـلاة والسلام ، وانما يعطى دلالته فى تصرفات المسلمين ، وقصص الحياة نفسها ، فى الحرب والسلم والعمل والعبادة ، وتعامل الناس والروابط فيما بينهم ، فقد كان هذا الفكر يترك بصماته الواضحة فى مجال البذل والتضحية واثره الواضح فى السلوك والأخلاق .

قال (ابراهيم بن سليمان بن عبد الملك) هربت من عدوى فمررت على الكوفة فاذا باب كبير ورجل وسيم ما رآنى حتى سألنى عن أمرى ، فقلت رجل خائف ومستجير بك فأجارنى ، وقدم لى خير ما عنده ، وكان يركب كل يوم فى الفجر ، ولا يرجع الا فى المساء فسألته فى ذلك فقال :

ان ابرهيم بن سليمان بن عبد الملك قتل أبى ظلما ، وأنا أطلبه لأدرك ثأرى ، فقلت له يا هذا قد وجب حقك ، أنا ابرهيم فخذ ثأرك فتبسم منى ، فقلت انه الحق ، فتغير وجهه واحمرت عيناه ، وفكر طويلا ، ثم قال : لن انقض عهدى وأخـرج عنى فلست آمن على نفسى وأعطانى ألف دينـار فرفضتها .

وقال (أبو معاوية الضرير) أكلت مع الرشيد يوما ، فصب على يدى الماء رجل ، ثم قال لى من بعد : يا معاوية : اتدرى من صب الماء على يديك ، فقلت لا : قال أنا ، فقلت يا أمير المؤمنين أنت تفعل ذلك اجلالا للعلم قال « نعم » .

وقال (على بن أبى طالب) للرجل الذى أثنى عليه : انا دون ما تقول ، وفوق ما تظن .

وجىء بالهرمزان مقبوضا عليه ليقتل فطلب الماء فجىء به ، فقال يا أمير المؤمنين : انا آمن حتى اشرب ، قال نعم : لك الأمان حتى تشرب فرمى الرجل القدح من يده واراقه على الأرض ، فقال عمر : اتركوه الآن .

ودخل (عمارة بن حمزة) على الخليفة المنصور وكان ذا عزوة وثروة ونفس أبية ، فقام رجل بين يديه ، وقال ظلمنى عمارة بن حمزه هــذا ، أخذ ضياعى وعقارى ، فأمره المنصور ان يقف بجوار خصمه ، فقال عماره : ان كانت الضياع له فلا أعارضه فيها ، وان كانت لى فقد وهبتها له .

ومر عمر بن الخطاب فتفرق كل من كان واقفا فى الطريق الا عبد الله بن الزبير فسأله عمر لماذا لم تذهب مع اخوانك : قال : ما الطريق ضيقه فأوسعها لك ، ولا لى ذنب فأخاف منك .

وقال (عمر بن عبــد العزيز) لغلام تقــدم للــكلام : ليتــكلم من أسن منك ، قال الغلام : يا أمير المؤمنين انما المرء باصغريه ، قلبه ولسانه ، فاذا منح الله العبد لسانا لافظا وقلبا حافظا ، فقد استحق الكلام ، ولو أن الأمور بالسن لكان ها هنا من هو أحق منك بمجلسك هذا .

واختلف حيان من قريش ، فأقبل أبو سفيان فقال : يا معشر قريش : هل لكم فى الحق أو فيما أفضل من الحق ، قالوا : وهل شىء أفضل من الحق ، قال نعم : العفو .

ولما جىء بابنة حاتم الطائى فى السبى قالت : ان أبى كان يفك العانى ويكسو العارى ، قال النبى : اعفوا عنها فان اباها كان يحب مكارم الأخلاق .

ولما فتح (خالد بن الوليد) الشام جاءته وفود المهنئين ومنهم الأشعث ابن قيس فمدحه بقصيدة فأجازه خالد بعشرة آلاف فلما علم عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بعث ببلال بن رباح فسأل خالد : أمن مالك أجزت الأشعث ام من مال المسلمين ، فقال خالد انها من مالى .

ووقفت امرأة على قيس بن عبادة فقالت : أشــكو اليك قلة الجرزان فقال قيس : ما احسن هذه الكناية ، املأوا لها بيتها خبزا ولحما وسمنا .

وقيل لأهل مكة : كيف كان عطاء بن أبى رباح فيكم (وكان واليا) .

قالوا : كان مثل العافية التى لا يعرف فضلها حتى تفتقد .

وقال الرشيد للكسائى (معلم ولديه الأمين والمأمون) وكان مكفوفا ، اتدرى من أشرف الناس ، قال : أنت يا أمير المؤمنين .

قال الرشيد : بل اشرف النـــاس من اذا هم بلبس نعليـــه تزاحم على تقديمها له وليا عهد المسلمين .

وقدم (عمر بن الخطاب) الى الشام على حمار فتلقاه معاوية (والى الشام) فى موكب ضخم ، فأعرض عنه عمر ، فجعل يمشى الى جنبه راجلا ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : اتعبت الرجل ، فأقبل عليه وقال :

يا معاوية : أنت صاحب الموكب مع ما بلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك ، قال نعم ، يا أمير المؤمنين . قال ولم ذلك : قال لانا فى بلاد لا تمنع من الجواسيس ، ولابد لهم ما يروعهم من هيبة السلطان ، فان أمرتنى بذلك أقمت عليه ، وان نهيتنى عنه انتهيت قال : ان كان الذى قلت حقا ، فانه رأى أريب ، وان كان باطلا فانها خدعة أديب ، لا آمرك ، ولا أنهاك .

وقال (الأصمعى) قلت لغلام حدث السن ، أيسرك أن يكون لك مائة ألف درهم وأنت أحمق ، قال : لا والله ، قلت : ولم ؟

قال أخاف ان يجنى على حمقى جناية تذهب مالى ويبقى على حمقى .

(٤)

ويقول « أبو أيوب الأنصارى » :

عندما قدم رسول الله الى المدينة ، نزل ، بيتى ، نزل فى الأدنى ، وانا وأم أيوب فى الأعلى ، فقلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، انى لاكـــره أن أكون فوقك ، وتكون تحتى فاظهر أنت فكن فى العلو وننزل نحن فنكون فى السفل .

قال النبى : يا أبا أيوب ، أرفق بنا ، وبمن يغشانا ان نكون فى أسفل البيت ، قال أبو أيوب : لقد انكسر لنا جب فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، مالنا لحاف غيرها ، ننشف بها الماء خوفا من أن يقطر على رسول الله منه شىء فيؤذيه .

وعندما حج (الوليد بن يزيد بن معاوية) وهو خليفة وعمر بن عبد العزيز والى مكة اذ ذاك ، دخل المسجد ينظر فى بنائه ، وقد جدده عمر ، واخرج الناس منه ، الا سعيد بن المسيب ، فقـــد بقى فى المسجد ما يجترىء أحد من الحرس ان يخرجه .

فقيل له : لو قمت ، فأبى أن يقوم قبل الوقت الذى يقوم فيه ، قيل لو سلمت على أمير المؤمنين ، فأبى أن يقوم اليه»، فجعل عمر بن عبد العزيز يعدل بالوليد فى ناحية المسجد رجاء ان لا يرى سعيدا حتى يقوم ، فحانت من الوليد نظره الى القبلة فقال :

— من هذا الشيخ ، أهو سعيد بن المسيب .

قال عمر : نعم ، ومن حاله كذا كذا ، فلو علم بمكانك لقام فسلم عليك ، وهو ضعيف البصر ، قال الوليد : قد علمت حاله ، ونحن نأتيه فدار فى المسجد حتى أتاه فقال : كيف أنت أيها الشيخ ، فرد سعيد دون ان يترك مكانه : بخير والحمد لله .

ويروى أن (عبد الرحمن الناصر) بعد ان افتتح « سموره » من أرض الأندلس ، امتطى صهوة جواده ، وانطلق متجولا فى ميادين القتال ، وبينما هو يمر تحت أسوار المدينة سمع نحيب طفل يبكى فترجل ، فاذا به أمام وليد مطروح فحمله ، واخفاه تحت عباءته ، ومضى حيث أقيم مضرب فسيح ، يستقبل فيه أصحاب البلاد ، وما كاد يصل حتى شقت صفوف الجند ، امرأة قد حلت شعرها ومزقت ثوبها ، تنوح وتعول ، فما ان رأت عبد الرحمن حتى صرخت فيه قائلة : اعد الى ولدى ، أهذا هو العدل الذى تحمله الينا ، وهنا كشف عبد الرحمن ردائه عن الطفل الذى حمله وقال : انظرى ، أيكون هذا الطفل ولدك .. فأرسلت المرأة صيحة سرور وأخذت تغمره بالقبلات وكتب عبد الرحمن فى وصيته انه حكم الأندلس خمسين يوما ، منها أربعة عشر يوما سعيدا ، منها يوم سموره !

وعندما قصد (عثمان بن طلحة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص) المدينة ، وسمع الرسول بقدومهم ، سربهم ، وقال لأصحابه : رمتكم مكة بأفلاذ كبدها ، يقول خالد :

ولبست من صالح ثيابى ثى عمدت الى رسول الله ، فاطلعت عليه فما زال — صلى الله عليه وسلم — يبتسم الى حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة ، فرد على السلام بوجه طلق ، فقلت : أشهد ان لا اله الا الله وانك رسول الله .

قال الرسول : الحمد لله الذى هداك ، فقد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك الا الى خير ، قلت يا رسول الله : ادع الله لى ان يغفر تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك .

قال النبى : الاسلام يجب ما قبله .

قال (يحيى بن اكثم) : ماشيت المأمون يوما فى بستان فكنت فى الجانب الذى يستره من الشمس ، فلما انتهى الى آخره ، وأراد الرجوع ، أردت أن أدور الى الجانب الذى يستره من الشمس فقال : لا تفعل حتى استرك كما سترتنى .

وقال الوالى زياد لحاجبه عجلان : انى وليتك هذا الباب وعزلتك عن ثلاث : عزلتك عن هذا المنادى اذا دعا للصلاة ، وعزلتك عن طارق بليل فشر ما جاء به ، ولو جاء بخير ما كنت فى حاجته ، وعن رسول صاحب الثغر ، فان ابطاء ساعة يفسد تدبير سنة .

وكان جار (أبو حنيفة النعمان) يغنى كل ليلة بصوت مرتفع فيقول :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

وذات ليلة تنبه أبو حنيفة فاذا بصوته قد اختفى ، فسأل عنه فقيل أنه محبوس فذهب فأخرجه وقال له : اترانا أضعناك ؟

وكان لأبى بكر الصديق غلام يقوم على خدمته وكان يسأله كل ليلة عن مصدر الطعام ، فجاءه ليلة بطعام دون أن يسأله ، فقال له الغلام : مالك كنت تسألنى كل ليلة ، ولم تسألنى الليلة ، قال : حملنى على ذلك الجوع ، قال : انتى صنعت رقية لقوم من الجاهلية ، قال أبو بكر : لقد كدت تهلكنى ، فأدخل يده فى حلقه وجعل يخرجها ، فقيل له : يرحمك الله ، أكل هذا من لقمة ، قال لو لم تخرج الا مع نفسى لاخرجتها ، سمعنا رسول الله يقول :

كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به .

وقيل مر عبد الله بن عمر بن الخطاب براع ومعه غنم سيده ، فقال له : هل من جزره (شاة تصلح لأن تجزر) قال الراعى : ليس ها هنا ربها ، قال ابن عمر : تقول له : ان الذئب أكلها .

قال الراعى : اتق الله .

وكان الرشيد فى طريقه الى الحج ، فوجد قرب الكوفة (بهلولا) المجنون راكبا على قصبة ، وهو يعدو وخلفه عدد من الصبيان يطاردونه ، قال الخليفة لأصحابه : من ذلك قالوا : بهلول المجنون .

فلما جاء قال الرشيد : عظنى ، قال وبم أعظك : هذه قصورهم وتلك قبورهم ، قال الرشيد : أحسنت ، فزدنى .

قال : من رزقه الله مالا وجمالا فعف فى جماله ، وداس فى ماله ، كتب فى ديوان الأبرار .

قال الرشيد : قد أمرنا ان تقضى دينك ، قال بهلول كلا : لا يقضى دين بدين ، أردد الحق الى أهله واقض دين نفسك أتظن ان الله يعطيك وينسانى .

***

استقبل الصديق أبو بكر قوما فقال : من القوم ، قالوا : من ربيعة ، قال وأى ربيعة ، انتم من هامتها ، قالوا من هامتها العظمى قال وأى هاماتها العظمى انتم قالوا : ذهل الأكبر ، قال : أبو بكر : فمنكم عوف بن محلم قالوا لا : قال فمنكم جباس بن مرة قالوا لا : قال فمنكم أخوال الملوك من كندة ، قالوا لا : قال أبو بكر فلستم ذهلا الأكبر ، انتم ذهل الأصغر ، وذلك من براعة تفقهه ومعرفته للانساب .

(٥)

ويعطى جوهر الفكر الاسلامى طابعه فى كلمات غير منسوبة لعلم من الأعلام ، هذه الكلمات التى تمثل « ضمير » الفكر الاسلامى وأعمق أعماقه مرتبطا بالخطوط العامة للاسلام وللخط الواضح الذى رسمته كلمات النبى فهو استمداد منها وانطلاق فى ضوئها وعلى هديها .

احذروا صولة الكريم اذا جاع ، واللئيم اذا شبع ، من وضع نفسه دون قدره رفعه الناس ، ومن وضعها عند حده وضعه الناس . عاقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح . الحمق يسلب السلامة ويورث الندامة ، العقل بلا أدب فقر ، والأدب بغير عقل حتف ، أعظم الخطأ : العجلة قبل الامكان ، والتأنى بعد الفرصة .

من اتجر في شيء ثلاث مرات فلم يصب منه شيئا فليتحول الى غيره ، من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، خذوا بسظلكم من العزلة ، من خاف الله لم يشف غله ، ومن اتقى الله لم يصنع كل ما يريد .

❊❊❊

❊ ثلاثة لا يستوحشون في غربة ، الفقيه العالم والبطل الشجاع ، والحلو اللسان ، من يكظم غيظه يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله .

❊ الجوار نسب ، والمودة نسب ، والصناعة نسب .

الدراهم مياسم ، من حبسها كان لها ، ومن أنفقها كانت له ، اذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فانه صخرة لا ينفجر ماؤها .

❊ استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج الى من شئت تكن أسيره ، وأحسن الى من شئت تكن أميره .

❊ ثلاثة من كنوز الجنة : كتمان المرض ، وكتمان الصدقة ، وكتمان المصيبة .

❊ من حضر معصية فكرهها فكأنه غاب عنها ، ومن غاب عنها فأحبها فكأنما حضرها .

❊ خير ما اعطى الانسان عقل يردعه ، فان لم يكن فحياء يمنعه ، فان لم يكن فخوف يزعجه ، فان لم يكن فحال يستره .

❊ ما الذى أعطى عن سعة بأفضل أجرا من الذى تقبل عن حاجة . تصدق وأنت شحيح صحيح ، تأمل البقاء وتخشى العاقبة . ان الله اذا استودع شيئا حفظه .

❊ من جر ثوبه مخيلة لم ينظر الله اليه يوم القيامة .

لا ينبغي لامرىء شهد مقالا فيه حق الا يتكلم فيه ، فانه لن يقدم أجله ، ولن يحرمه رزقا هو له .

❊ ان الانسان لينشر له من الثناء ما يملأ بين المشرق والمغرب وما يساوى عند الله جناح بعوضه .

* ليس الحليم من ظلم فحكم ، حتى اذا قدر انتصر ، ولكن الحليم من ظلم فحلم ، حتى اذا قدر غفر .
* الحلم والاناة توأمان مصدرهما علو الهمة .
* حسن التدبير نصف الكسب ، وسوء التدبير داعية البؤس . أبت الدنيا ان تعطى احدا ما يستحقه أما محطوط عن درجتــه أو مرفوع فوق قدره .
* من أعطى عقلا فقد احتسب عليه من الرزق .
* ثلاثة مبغوضة : سرعة الجــواب ، وطــول التمنى ، والاســتغراق فى الضحك .
* اسوأ الناس من اتسعت معرفته ، وضاقت مقدرته ، وبعدت همته .
* فى بعض الأدعية « صرف الله عنــك التمام » فان عنــد التمام يكون النقصان . وقيل : ما بعد الغايات الا الآفات .
* ليس الايمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل لو ظهرت الآجال لافتضحت الآمال ، التجارب مرائى الغيوب ونواظر العيوب .
* احزم الأمر ، من اذا وضح له الأمر ، صدع به .
* نظام الأمر التدبير ، ورأس الأمر التقدير .
* أكبر الأدواء : التلهف على ما لا يدرك .
* ان الدنيا لما امتلأت مكاره ، وجب على العاقل ان يسلأها حذرا ، من علامة الحمق سرعة الجواب .
* اذا اشتبه عليك أمران فاجتنب أقربهما الى هواك ، ان لم يكن ما تريد فارد ما يكون .
* ما هلك امرؤ من مشورة ، نعم المؤازرة المشاورة ، وبئس الاستعداد الاستبداد ، والأحمق من قطعه العجب عن الاستشارة .
* من نهض به أدبه لم يقعد به حسبه ، شرف الحسب يحتاج الى شرف الأدب ، وشرف الأدب مستغن عن شرف الحسب .
* أزهد الناس فى العلم جاره ، والعــالم كالجمة من البئر يأتيها البعــداء ويزهد فيها القرباء .

* لا كنز أنفع من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا قرين أزين من العلم ، ولا شرف أعز من التقوى ، ولا عمل أفضل من الفكر ، ولا حسنة أعلى من الصبر ، ولا دواء ألين من الرفق .
* الرجال ثلاثة : فارس وشجاع وبطل ، فالفارس الذى يشد اذا شدوا ، والشجاع : الداعى الى البراز والمجيب داعيه ، والبطل : الحامى لظهور القوم اذا ولوا .
* جسم القلب الشجاعة ، وقلبها التدبير ، ولسانها المكيدة ، وجناحها الطاعة ، وقائدها الرفق ، وسائقها الصبر .
* لا دليل أنصح من الصدق ، ولا رسول أعدل من الحق ، ولا فقر أذل من الطمع ، ولا عبادة أحسن من الخشوع ، ولا حارس أحفظ من الصمت ، ولا غائب أقرب من الموت .
* قال رجل من بنى عبس : لماذا كثر صوابكم ، قال : نحن ألف رجل وفينا حازم واحد ونحن نطيعه فكأننا ألف حازم .
* السخى من كان بماله متبرعا ، وعن مال غيره متورعا .
* الاخوة هى الموافقة والتشاكل ، والصديقان نفس واحدة فى جسدين .
* لو كانت الدنيا لقمة فى يد الكريم لوضعها فى فم ضيفه .
* كن بحيلتك — فى الحرب — أوثق منك بشدتك ، وبحذرك أحوج منك بنجدتك ، فان الحرب هزيمة للمتهور ، وغنيمة للمتحذر .
* قيل لأحدهم : ما أحسن أن يصبر الانسان عما يشتهى . فقال : أحسن منه أن لا يشتهى الا ما ينبغى .
* المظفر ما سور بالصبر ، والقدرة مقرونة بالحيلة ، والادراك موصول بالتأنى .
* مروءتان ظاهرتان : الرياش والفصاحة .
* لولا ظلمة الخطأ ما اشرق نور الصواب .
* لا يزال المرء عالما ما طلب العلم ، فان ظن انه قد علم فقد جهل .

اغد عالما أو متعلما أ ومستمعا أو محبا للعلم ولا تكن الخامسة فتهلك .

خير خصال طالب العلم السؤال ، فاذا جلست الى عالم فسل تفقها ولا تسل تعنتا .

* العلم علمان : علم فى القلب فذلك هو العلم النافع ، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم .
* ما قرن شيء الى شيء أحسن من حلم الى علم ، ومن عفو الى قدره لا فكر كالحرص ، ولا بلاء كالشره ، ولا غنى كالصناعة . ولا عقل كالتدبير ، ولا حسب كحسن الخلق .
* لا خير فى المال بغير الجود ، ولا فى الصدق الا مع الوفاء ، ولا فى الفقه الا مع الورع ، ولا فى الحياة الا مع الصحة .
* من كان عبد للحق فهو حر ، ومن حكم لنفسه حكم الله عليه ، ومن عرف قدره لم يهلك ، ومن سأل فوق حاجته استحق الحرمان ، ومن جهل شيئا عاداه ، ومن سلك مسالك السوء اتهم ، ومن أحب الحمد أحسن السيرة
* من زيد فى عقله نقص فى حظه ، وما جعل الله لأحد عقلا وافرا ، الا احتسب من رزقه .
* صدر العاقل صندوق سره ، والبشاشة حبالة المودة .
* العلم يوطىء الفقراء بسط الملوك ، اذا اردت ان تكون عالما فاقصد فنا واحدا ، واذا اردت أن تكون أديبا فخذ طرفا من كل فن .
* الناس رجلان : عالم فلا تماره وجاهل فلا تجاره .
* كفى بالدهر مؤدبا ، وبالعقل مرشدا .
* اياك وما يعتذر منه ، حسبك من شر سماعه .
* اكمل الخصال ثلاث : وقار بلا مهابة ، وسماع بلا طلب مكافأة ، وحلم بغير ذل .
* سئل حكيم : هل شيء خير من الدراهم ، فقال : نعم : معطيها أفضل العطية ما كان من معسر الى معسر ، وأفضل العطية جهد المقل .
* ثلاثة لا تعرف الا عند ثلاثة : ذو البأس لا يعرف الا عند اللقاء ، وذو الأمانة لا يعرف الا عند الأخذ والعطاء ، والاخوان لا يعرفون الا عند النوائب .
* اذا كان لك عقل فلك فضل ، وان كان لك تقى فلك دين ، وان كان لك مال فلك حسب .

* من عز باقبال الدهر ذل بادباره ، من ابطره الغنى اذله الفقر .
* لا يكن حبك كلفا ولا بغضك سرفا .
* تدرك بالرفق ما لا تدرك بالعنف ، ألا ترى أن الماء على لينه يقطع الحجر على شدته .
* أربعة من علامات اللؤم : افشاء السر ، واعتقاد الغدر ، وغيبة الأحرار ، واساءة الجوار .
* خمس خصال مبغوضة : الغضب من غير مغضب ، والكلام من غير نفع ، والعطية من غير موضع ، والثقة بكل حد ، والا يعرف المرء صديقه من عدوه .
* لا تعد عدة لا تثق فى نفسك بانجازها ، ولا يغرنك المرتقى ان كان سهلا اذا كان المنحدر وعرا ، واعلم ان للاعمال جزاء فاتق العواقب ، وان للامور بغتات فكن على حذر .
* اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع .
* اذا خرجت الكلمة من القلب وقعت فى القلب ، واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان .
* لا تتعلموا العلم لتباهو به العلماء ، ولا لتماروا به السفهاء ، ولا لتصرفوا به وجوه الناس .
* ينصب لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة .
* لو كانت لى دعوة مستجابة لجعلتها لولى الأمر فان الله اذا اصلحه أمن العباد .
* حسب المرء من كمال المروءة الا يلقى احدا بما يكره ، ومن حسن خلق الرجل كفه اذاه ، ومن سخائه بره بمن يجب حقه عليه .
* ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر الا نقص عقله مثل ذلك . لا تتكلف ما لا تطيق ، ولا تتعرض لما لا تدرك ، ولا تطلب الجزاء الا بقدر ما صنعت ولا تفرح الا بما نلت ، ولا تتناول الا ما رأيت نفسك له أهلا .
* الحسد يقلل الرزق ويذيب الجسد ، والطمع يرمى بصاحبه الى البلاء ، والكسل يورث الفشل ، والغضب يورث السخط .

من كلمات العلم والعلماء

ابن المقفع :

العقل هو الدعامة لجميع الأشياء ، والذى لا يقدر أحد فى الدنيا على اصلاح معيشته ولا احراز نفع ولا ضرر الا به ، فأمارة العقل اختبار الأمور بالبصر ، وتنفيذ البصر بالعزم .

المشتطون فى أربعة متندمون ، المفرط اذا فاته العمل ، والمنقطع عن اخوانه اذا نابته النوائب ، والمستمكن من عدوه ثم يفوته لسوء تدبيره ، والجرىء على الذنوب اذا حضره الموت ، اذا نابت اخاك احدى النوائب من زوال نعمة ، أو اقبال بلية ، فاعلم انك قد ابتليت معه ، وعليك اما بالمواساة فتشاركه فى البلية ، اما بالخذلان فتحمل العار .

الرجال ثلاثة حازم وأحزم منه وعاجز ، فالحازم من اذا نزل به الأمر لم يدهش له، ولم يذهب قلبه شعاعا ولم ترع به حيلته، ومكيدته، التى يرجو بها المخرج فيه ، وأحزم من هذا ، المقدام ذو العدة ، الذى يعرف الابتلاء قبل وقوعه ، فيعظمه اعظاما ، ويحتال له حيلة ، حتى كأنه قد لزمه ، فيحسم الداء قبل أن يبتلى به ، ويدفع الأمر قبل وقوعه ، أما العاجز فهو فى تردد وتمن ، وتوان حتى يهلك ، تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام ، ومن حسن الاستماع امهال المتكلم حتى ينقضى حديثه والاقبال بالوجه والنظر الى المتكلم والوعى لما يقول .

لا يخل قلبك من المذاكرة فيعود عقيما ، ولا تعف طبعك من المناظرة فيعود سقيما ، من أشد عيوب الناس خفاء عيوبهم عليهم ، من خفى عليه عيبه خفيت عليه محاسن غيره ، فلن يقلع عن عيبه الذى لا يعرفه ولن ينال محاسن نفسه .

لا تعرضن عقلك على الناس ، فاذا اضطرك أمر فكن كصاحب الشطرنج اذا وجد ضربة غريبة انتهزها ، واياك ان تبتدىء فى مجلس لم تسبر عقول أصحابه ، فبين العقول بون شديد .

أعظم الجهاد جهاد المرء نفسه ، كثرة التمنى تخلق العقل وتطرد القناعة ، ان العاقل لا يخفى فضله ، وان هو اخفاه ، كالمسك الذى لا يكتم ، وأحسن الكلام لا يتم الا بحسن العمل .

اذا رأيت رجلا يحدث حديثا قد علمته ، أو يخبر بخبر قد سمعته فلا تشاركه فيه ، حرصا على أن يعلم الناس انك قد علمته ، فان فى ذلك خفة وشحا وسوء أدب وسخفا .

لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك العدل ، وفيما بينك وبين صديقك الرضى .

الناس الا قليلا ممن عصم الله مدخولون فى أمورهم ، فقائلهم باغ ، وسامعهم عياب ، وسائلهم متعنت ، ومحبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف ، يترقبون الدول ، ويتعاطون القبيح ، ويتعابنون بالفخر .

من ورع الرجل الا يقول ما لا يعلم ، ومن الأدب أن يتثبت فيما يعلم .

لا عقل لمن أعقله عن آخرته ما يجده من لذة دنياه ، وليس من العقل أن يحرمه حظه من الدنيا بصره بزوالها ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا عن نفسه ، أن لا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع بها حاجته الجارية ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى بها الى اخوانه ، وساعة يخلى فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل .

ان سمعت من صاحبك كلاما أو رأيا يعجبك ، فلا تنتحله تزينا به عن الناس ، واكتفى من التزين بان تجتنى الصواب اذا سمعته وتنسبه الى صاحبه ، واعلم ان انتحالك ذاك سخطه لصاحبك ، وان فيه مع ذلك عارا .

من لا اخوان له فلا أهل له ، ومن لا عقل له فلا دنيا له ، ومن لا مال له فلا شىء له ، من ذهب حياؤه ذهب سروره .

اني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ماعظمه عندي صغر الدنيا في عينيه ، كان لا يلوم احدا على ما قد يكون العذر عن مثله ، حتى يعلم ما اعتذاره ، وكان لا يشكو وجعا الا لمن يرجو عنده البرء ، ولا يصحب الا من يرجو عنده النصيحة . وكان لا يتبرم ولا يتسخط ، ولا يخص نفسه دون اخوانه بشيء من اهتمامه وقوته .

هذه كلمات ابن المقفع ترسم نموذجا للكلمة البارعة ،ولا شك فقد كان (ابن المقفع) أحد نوابع الفكر الاسلامي ، وقد عرف بالشخصية الواضحة الملامح ، سريع البديهة ، وصفه الجاحظ فقال : انه كان جوادا فارسا جميلا ، خفيف الروح مرحا حلو الدعابة ، سأله الأصمعي : من أدبك قال نفسي ، اذا رأيت من غيري حسنا آتيته ، واذا رأيته قبيحا أبيته .

***

وقد صور ابن المقفع مفهومه للحياة في احدى رسائله فقال : « ابذل لصديقك دمك ومالك ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحننك ، ولعدوك عدلك » .

وقد طبق ابن المقفع ذلك عمليا فقدم دمه لصديقه ، ذلك أنه اخفى « عبد الحميد الكاتب » فعثر عليه عنده ، فلما فاجأهما الطلب وهما في بيت المقفع ، قال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد فقال كل واحد منهما : « أنا » .. خوفا على صاحبه ، ولكن عبد الحميد قال لهم : اصبروا ، ان لكل منا علامات تستطيعون أن تعرفوه بها .

وابن المقفع امام طريق سلكه الجاحظ وابن قتيبة وابن حزم والنويري ولقد كان يكف أحيانا عن الكتابة فاذا سئل قال :

ان الكلام يزدحم في صدري فأقف لتخيره ، وابن المقفع عصارة جامعة للثقافة الاسلامية ممتزجة بين العربية والفارسية .

يقول : اعرف الأصول والفصول فان كثيرا من الناس يطلبون الفصول مع اضاعة الأصول .

وأصل الأمر في صلاح الجسد ، الا تحمل عليه من المآكل والمشارب الا خفافا . وأصل الأمر في البأس والشجاعة الا تحدث نفسك بالادبار

وأصحابك مقبلون على عدوهم ، وأصل الأمر فى الجود الا تضن بالحقوق على أهلها ثم ان مددت أن تزيد ذا الحق على حقه ، وتطول على من لا حق له فافعل .

واصـــل الأمر فى الدين أن تعتقد الايمان على الصـــواب وتجتنب الكبائر ، وأصل الأمر فى الكلام أن تسلم من السقط بالتحفظ ، ثم أن قدرت على بارع الصواب فهو أفضل ، وأصل الأمر فى المعيشة ألاتنى عن طلب الحلال ، وأن تحسن التقدير لما تفيد وما تنفق ولا يغرنك من ذلك سعة تكون فيها .

(توفى ١٤٣ هـ)

أبو حنيفة النعمان :

انى آخذ فى تقرير ما أحتاج الى تقريره بما فى كتاب الله ان وجدته فيه ، فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاثار الصحاح عنه ، من التى فشت بأيدى الثقات ، فاذا لم أجده فى كتاب الله ولا فى سنة رسول لله أخذت فيه بقول أصحابه من شئت ، وأدع قول من شئت ، ثم لا أخرج من قولهم الى قول غـيرهم : فاذا انتهى به الأمر الى ابراهيم النخعى والشعبى والحسن البصرى وابن سيرين وسعيد بن المسيب فلى ان أجتهد كما اجتهدوا .

***

وكان الخوارج حين دخلوا الكوفة قد انتهوا الى أبى حنيفة رضى الله عنه فى حلقته بالمسجد فانتضوا سيوفهم ، وقالوا : قد جئناك بمسألتين فان أجبت عنهما والا أرقنا دمك .

قال أنصفونى واغمدوا سيوفكم فان بريقها يهولنى ، فأبوا ، فقـال : تكلموا ، قالوا : جنازتان على باب المسجد ، احداهما جنازة شارب خمـر شربها فمات ، والثانية : جنازة امرأة حملت سـفاحا وشربت دواء فقتلت جنينها وماتت . قال أبو حنيفة : أمن النصارى كانا أم من اليهود ؟

قالوا : لا ، قال فمن أى الملل كانا ، قالوا : ممن يشهد أن « لا اله الا الله وان محمدا رسول الله » .

قال : أقول كما قال نوح عليه السلام فى قوم كانوا أعظم جرما منهم « وما علمى بما كانوا يعملون ، ان حسـابهم الا على ربى » أو كما قال ابراهيم : « فمن تبعنى فانه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم » أو كما قال عيسى « ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » أو أقول ما قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : قل لا أعلم الغيب ولا أقول

انى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيكم الله خيرا » فألقى القوم أسلحتهم وقالوا :
نبرأ الى الله مما كنا فيه .

***

وقال أبو حنيفة : أخطأت فى خمسة أبواب من المناسك بمكة فعلمنيها حجام ..

وجاء جماعة من أهل المدينة يناظرونه ويحاجونه فى رأيه الذى يراه من أن قراءة المصلين خلف الامام فى الصلاة تكفى عنها قراءة الامام .

قال : لا يسكننى مناظرة الجميع ، اختاروا لجدالكم أعلمكم فاختاروه ، قال : وهل اذا ناظرته لزمتكم الحجة . لانكم اخترتموه فجعلتم كلامه كلامكم ، قالوا : بلى ، قال : هكذا نحن اخترنا الامام فقراءته قراءتنا ، وهو ينوب عنا .

ودخل أبو حنيفة على مالك بن أنس ، فلما خرج قال للناس ، أتدرون من هذا ، قالوا : لا ، قال : هذا النعمان ، لو قال هذه الاسطوانة من ذهب لخرجت كما قال !

قال يزيد بن هارون : ما رأيت أروع من أبى حنيفة ، رأيته يوما جالسا فى الشمس عند باب انسان ، فقلت له : يا أبا حنيفة ، لو تحولت الى الظل ، قال : لى على صاحب هذا البيت دراهم ، ولا أحب أن أجلس فى ظل فناء داره ، وأرسل أبو حنيفة الى شريكه فى التجارة متاعا فيه ثوب معيب يبيعه ، وشرط عليه أن يبين عيبه ، فباعه شريك أبو حنيفة دون أن يبين ما فيه ، ولم يعرف المشترى ، فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمن المباع ، وكان ثلاثين ألف درهم .

وكا أبو حنيفة يردد اذا ما أخذته هزة المسائل : أين الملوك من لذة ما نحن فيه ، والله لو فطنوا لقاتلونا عليه .

وقال شريك القاضى : كان أبو حنيفة طويل الصمت ، كثير التفكير ، دقيق النظر فى الفقه ، وقال أحد تلاميذه : أقمت عند أبى حنيفة خمس

سنين ، فما رأيت أطول منه صمتا ، فاذا سئل فى الفقه تفتح وسال كالوادى ، وسمعت له دويا وجهارة فى الكلام ، وكان يتجر فى الخز فجاءته امرأة تطلب منه ثوب خز ، فأخرجه لها : فقالت له : اننى امرأة ضعيفة وانها أمانة ، فبعنى هذا الثوب بما يقوم عليك . قال خذيه بأربعة دراهم ، فقالت : لا تسخر منى وأنا عجوز !

فقال : انى اشتريت ثوبين ، فبعت أحدهما برأس المال الا أربعة دراهم فبقى على هذا الثوب بأربعة .

ولا شك تعطى هذه الصور ما نريد أن نصل اليه من هؤلاء العلماء الأئمة فقد كانوا مثلا فى حياتهم العملية لايمانهم وفقههم وقدرتهم على تطبيق هذه القيم على حياتهم ، ولقد كان أبو حنيفة يجمع ربح تجارته فيشترى بها لشيوخ المحدثين ، ثم يدفع الباقى اليهم ، ويقول فى تواضع ، أنفقوا ولا تحمدوا الا الله ، فانى ما أعطيتكم من مالى شيئا .

ولكن من فضل الله يجرى على يدى .

(توفى ١٥٠ هـ)

مالك بن أنس :

« ان هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه ، لاخير فيمن يرى نفسه فى حال لايراه الناس لها أهلا ، العلم نور لايأنس الا بقلب تقى خاشع ، مازهد أحد فى الدنيا الا أنطقه الله بالحكمة ، خير الأمور ما كان منها ضاحيا بينا ، وان كنت فى أمرين أنت منهما فى شك ، فخـذ بالذى أوثق . من أحب أن يجيب فى مسألة فليعرض نفسه على الجنـة والنار ، وكيف يكون خلاصـه فى الآخرة .

اذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه ، ليس العلم بكثرة الرواية ، انمـا هو نور يضعه الله فى القلب ، طلب العلم حسن جميل ، ولكن أنظر ما يلزمك من حين تصبح الى أن تمسى فالزمه ، حق على من طلب العـلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية .

لا ينبغى للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيقـه ، فانه ذل واهانة للعلم ، ينبغى للقاضى ألا يترك مجالسة العلماء ، وكلما نزلت به نازلة ردها اليهم وشاورهم ..

اذا عرض لك أمر فأتئـد ، وعاير على نظرك بنظر غيرك ، فان العيـار يذهب عيب الرأى ، كما تذهب النار عيب الذهب .

ما أحب لأحد أنعم عليه الا أن يرى أثر نعمته عليه ، وخصـوصا أهل القلم ، ينبغى لهم أن يظهروا مروءاتهم فى ثيابهم اجلالا للعلم .

التواضع فى التقى والدين ، لا فى اللباس .. انا كنا نتواضع فى التقى والدين لا فى اللباس ، من علم أن قوله من عمله ، قل كلامه .

الزهد فى الدنيا طلب التكسب مع قصر الامل ، اذا لم يكن للانسـان فى نفسه خير ، لم يكن للناس فيه خير ..

لايؤخذ العلم من أربعة ، ويؤخذ ممن سوى ذلك ، لايؤخذ من سفيه، ولا من صاحب هوى ، يدعو النـاس الى هواه ، ولا من كذاب يكذب فى

أحاديث الناس ، وان كان لايتهم على أحاديث الرسول ، ولا من شـيخ له فضل صلاح وعبادة ، اذا كان لايعرف مايحدث به .

قال له الخليفة المنصور : ضع للناس كتابا فى الفقه تجنب فيـه رخص ابن عباس، وتشديدات ابن‌عمر، وشواذ ابن مسعود، ووطئه توطيئا ، وقد عزمت على أن أبعث به الى الأمصار وآمرهم بأن يعملوا بمافيه ولا يتعدوه قال له مالك : لاتفعل يا أمير المؤمنين ، فان النـاس قد سبقت لهم أقاويل وسمعوا أحاديث ، وان ردهم عما اعتقدوا شديد ، فدع الناس وما هم عليه.

وجاءه رجل يحمل مسألة من بلدة مسيرة ست شهور ، فمـا لبث أن قال له : لا أدرى ، ومن قال لا أدرى فقد أفتى .

وكتب اليـه يحيى بن يزيد يقول : بلغنى انك تلبس الدقاق ، وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطىء ، وتجعل على بابك حاجبا ، وقد جلست‌مجلس العلم ، وقـد ضربت اليك المطى وارتحل النـاس اليك ، واتخذوك اماما ، فاتق الله ..

وأجابه مالك : أما ماذكـرت لى أنى آكل الرقاق ، وألبس الدقاق ، وأحتجب وأجلس على الوطىء فنحن نفعل ذلك ونسـتغفر الله . وقـد قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » وانى أعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه .

ذلك « مالك بن أنس » الذى قال : أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله عند هذه الأساطين ، فما أخذت عنهم شـيئا ، وان أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينا ، الا أنهم لم يكونوا من أهل‌هذا الشأن .

هكذا كان فهمه للعلم وأسلوبه فيه ، ومنهجه ، وكذلك كان مالك حر الفكر شجاعا ، يقول ما يعرف ولا يبـالى أن لايعلم ما يجهل . وهو الذى وضع القاعدة العلمية التى تقول : لا يؤخـذ العلم من أربعة ويؤخذ ممـا سواهم (وقد أوردناها قبلا) .

وروى أن الرشيد بعث اليه ليأتيه ويحدثه فقال مالك ، يا أمير ، مـن اجلال رسول الله اجلال العلم ، فجلس بين يديه فحدثه .

(توفى ٧٩٥ م)

محمـد بن ادريس (الشافعى) :

أظلم الظالمين لنفســه ، من تواضع لمن لايكرمه ، ورغب فى مودة من لا ينفعه ، وقبل مدح من لا يعرفه ، المراء فى العلم يقسى القلب ، ويورث الضغائن ، من لم تعزه التقوى فلا عز له ، سياسة الناس أشد من سياسة الدواب ، لو علمت أن الماء البارد يثلم مروءتى ماشربتــه ، ليس بأخيك من احتجت الى مدارته ، لا تقصر فى حق أخيك اعتمادا على مروءته ، لاتبذل وجهك الى من يهون عليه ردك .

العلم أفضل من صلاة النافلة ، رضاء الناس غاية لاتدرك ، من صدق فى أخوة أخيه ، قبل علله ، وسد خلله ، وغفر ذلله ، من أراد الدنيا فعليــه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ما أفلح فى العلم الا من طلبــه من القلة (الفقر) ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر على . زينة العلماء التوفيق، وحليتهم حسن الخلق ، وجمالهم كرم النفس .

من برك فقد أوثقك ، ومن جفاك فقد أطلقك . من نم لك نم بك ، ومن اذا أرضيته قال فيك ماليس فيك . من وعظ أخاه سرا فقــد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه .

من تزين بباطل هتك ستره ، أرفع النــاس قدرا من لايرى قــدره ، وأكثرهم فضلا من لايرى فضله . صحبة من لايخاف العــار ، عار ، ان الله تعالى خلقك حرا فكن حرا كما خلقك . ما أكرمت أحــدا فوق مقداره الا اتضع من قدرى عنده بمقدار ما زدت فى اكرامه .

***

ولقد كان الشافعى يجلس للعلم فى حلقته اذا صلى الصبح ، فيجيئه أهل «القرآن» فيسألونه ، فاذا طلعت الشمس ، قاموا ، وجاء أهل «الحديث» يسألونه ، فاذا ارتفعت الشمس قاموا ، ثم تستوى الحلقة للمناظرة والمذاكرة،

فاذا ارتفع النهار تفرقوا ثم جاء أهل « اللغة » والعروض والشعر والنحو ، حتى يأتى المساء ، والشافعى جالس فى حلقته .

وقيل كان صوته أشـبه بالصنج أو الجرس وكان اذا قرأ (القرآن) التف حوله الناس ، وعجوا بالبكاء . قالوا : كنا اذا أردنا أن نبكى ، قلنـا قوموا الى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القرآن ، فاذا أتينا استفتح القرآن فتساقط الناس بين يديه وكثر عجيجهم بالبكاء من حسن صوته .

قال الشافعى : لما ختمت القرآن دخلت المسجد أجالس العلماء ، وأحفظ الحديث ، وكا نمنزلنا بمكة فى شعب الخيف ، وكنت فقيرا بحيث لا أملك ما أشترى به القراطيس ، فكنت آخذ العظم ، وأكتب فيه ، حتى ملأت حجرة كبيرة بهذه العظـام ، ثم صبرت على نفسى عاما كاملا فحفظت ما كتبت على هذه العظام عن ظهر قلب وقلت :

علمى معى أينمـــا يممت ينفعنى
قلبى وعـاء له لا بطن صـــندوق
ان كنت فى البيت كان العلم فيـه معى
وان كنت فى السوق كان العلم فى السوق

وقال أحمد بن حنبل : كان الشافعى كالشمس للدنيا والعافية للبدن ، وفى تذكرة الجاحظ وكان الشافعى أحذق قريش بالرمى وكان يصيب من العشرة عشرة ..

وفى تاريخ بغداد : ان الشافعى لما دخل بغداد وجد فى المسجد ما يقرب من خمسين حلقة ، يقول لهم ، قال الله وقال الرسول ، وهم يقولون ، قال أصحابنا ، حتى ما بقى فى المسجد حلقة غير حلقته ، وقيل للشافعى : كيف كانت شهوتك للعلم ، قال أسمع بالحرف مما لم أسمعه فتود أعضابى ان لها اسماعا تنعم به مثل ما نعمت به الأذان ، قيل له : كيف حرصك عليه ؟

قال : حرص الجموع المنوع فى بلوغ لذته للمال ، قيل كيف طلبك له: قال : طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره .

(توفى عام ٨١٩م)

أحمد بن حنبل :

ما قل من الدنيا ، كان أقل للحساب ، التوكل قطع الاستشراف باليأس من الناس ، الفتوة ترك ماتهوى لما تخشى ، ان لكل شىء كرما ، وكرم القلب الرضا عن الله عز وجل، عليكم باليأس فيما فى أيدى الناس ، واياكم والطمع، فان الطمع فقر .

الدراهم مياسم من حبسها كان لها ومن أنفقها كانت له ، يؤكل الطعام بثلاث ، مع الاخوان بالسرور ، ومع الفقراء بالايثار ، ومع أبناء الدنيا بالمروءة ، ولو أن الدنيا تقل حتى تكون فى مقدار « لقمة » ثم أخذها امرؤ مسلم فوضعها فى فم أخيه المسلم ، ما كان مسرفا .

أصول الايمان ثلاثة : دال ودليل ومستدل ، فالدال الله تبارك وتعالى ، والدليل القرآن ، والمستدل المؤمن ، اذا سكت العالم تقيه (حذرا وخوفا) والجاهل يجهل فمتى يظهر الحق ، النـاس محتاجون الى العلم مثل الخبز والماء ، طوبى لمن أجمل الله ذكره .

اذا كان فى الرجل مائة خصلة من الخير ، وكان يشرب الخمر ، محتها كلها ، لاتكتبوا العلم عمن يأخذ عليه عرضا من الدنيا ، اذا رأيتم من يحب الكلام فأحذروه ، الأعمال بخواتيمها . مع المحبرة الى المقبرة ، أنا أطلب العلم الى أن أدخل القبر .

***

ذلك أحمد بن حنبل الذى احتسب الهجرة فى طلب الحديث ، وسـافر من المدنية الى اليمن لطلب حديث واحد ، وفى هذا السفر فقد منـه الزاد ، فكان يكرى نفسه لحمل أمتعة الناس ، حتى وصل الى عبد الرازق بن همام، فلما علم مابه من مشقة أراد أن يمنحه شيئا ، فقال : أنا بخير ، وردها ،ومكث على هذه المشقة سنتين استهان بها فيهما لأنها فى طلب الحديث ، كما رحل فى سبيل الحديث الى البصرة خمس مرات والحجاز مثلها ، وكان يرحل مع قلة المال حتى أنه أحيانا كان يرحل ماشيا .

وقد وصف المرزوى ابن حنبل فقـال : هذا رجل هانت عليه نفسـه فى الله . وما ذكرت المحنة فى تاريخ الاسلام الا ذكر أحمد بن حنبل ، وتلميذه ابن تيميه . ولقد امتدت المحنة بابن حنبل أربعة عشر عاما طوالا ما مر عليه يوم من أيامها دون أن يحس ذلك الشبح الرهيب الذى كان يرده عما يعتقد أنه الحق ، وابن حنبل على فقره ، وضعف صحتـه ، يصر ، ويصر فى عنف ويقف كعملاق ويحتمل قسوة خصومه ، ويستعذب السياط على جلده الواهن دون أن يتردد لحظة واحدة أو يمر بخاطره أن يتراجع عن رأيه .

فلما أمتحن باقبال الدنيا عليه بعد ، احتفظ معدنه القوى ، الكريم ، بنصوعه وصفائه ، فلم يركن الى الدنيـا حين سطت له ولم يغير من منهج حياته وتقشفه وورعه شيئا .

وقد أحرزت كتبـه يوم أن مات فكانت اثنى عشر حملا ، وكل ذلك قد قرأه واستوعبه ، وقد صقلته الرحلة والمحنة ، فكان مثلا للورع والزهد ونموذجا لشخصية العالم الفقيه ، والانسان الكامل .

يقول الشافعى : خرجت من بغـداد وما خلفت فيها أفقه ولا أروع ولا أعلم من أحمد بن حنبل .

ومما يؤثر عنه أنه لم يجلس للفتيا والحديث الا بعـد سن الأربعين ، وقيل كان يستمع اليه خمسة آلاف يكتب منهم نحو خمسمائة .

(توفى ٨٢٠ م)

أبو عمرو الجاحظ :

❋ ان كلامه صلى الله عليه وسلم هو الكلام الذى قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ونزه عن التكليف ، استعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق الا عن ميراث حكمه ، ولم يتكلم الا الكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، هذا الكلام الذى القى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الافهام وقلة عدد الكلام ، لم تسقط له كلمة ولازلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب . بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكان الخصم الا بما يعرفه الخصم ولا يحتج الا بالصدق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطىء ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ولا أفصح عن معناه، ولا أبين عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم .

❋❋❋

❋ متى كان اللفظ كريما فى نفسه متخيرا فى جنسه، وكان سليما من الفضول ، بريئا من التعقيد ، حبب الى النفوس واتصل بالاذهان ، والتحم بالعقول ، وهشت له الأسماع وارتاحت له القلوب ، وخف على السنة الرواة وشاع فى الآفاق ذكره .

❋ والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والقروى والبدوى وانما الشأن فى اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ،وصحة الطبع ، وكثرة الماء ، وجودة السبك ، وانما الشعر صياغة وضرب من التصور

(١) (البيان والتبيين) للجاحظ .

❋ أن تشير المال آلة للمكارم وعون على الدين وتأليف للاخوان وان من فقد المـال قلت الرغبة اليه والرهبـة منه ، ومن لم يكن بموضع رغبـة ولا رهبة استهان الناس به ، فأجهد جهدك كله فى أن تكون القلوب معلقـة منك برغبة أو رهبة .

❋ ❋ ❋

لعمرى ان العيون لتخطىء ، وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل ، اذ كان زماما على الاعضاء وعيـارا على الحواس فلا تذهب الى ما تريك العين ، واذهب الى ما يريك العقل ، وللامور حكمان : حكم ظـاهر للحواس ، وحكم باطن للعقـول ، والعقل هو الحجة (١) .

❋ ❋ ❋

الكتاب نعم الذخر والعقدة هو ، ونعم الجليس والعدة ، ونعم العشرة والنزهة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الأنيس لساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، والـكتاب وعاء ملىء علما ، وظرف حشى ظرفا ، واناء شحن مزاحا وجدا ، ان شئت ضحكت من نوادره ، وان شئت عجبت من غرائب فرائده ، وان شئت الهتك طرائفـه ، وان شئت أشجتك مواعظه ، ولا أعلم تاجا فى حداثة سنه وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وامكان وجوده ، يجمع بين التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، من آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعـة ، والمذاهب القـديمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الأخبار عن القرون الماضية ، والبـلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمع لك الكتاب .

والكتاب هو الذى اذا نظرت فيه أطال امتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط سلطانك ، وجود بنانك ، وفخم الفاظك وعمر صـدرك ، ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك (٢) .

(١) كتاب التربيع والتدوير : للجاحظ
(٢) كتاب الحيوان (جـ ١) .

ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك ، لما قال الله جل ذكره « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » فوضع الضحك بحزاء الحياة ، ووضع البكاء بحزاء الموت ، وانه لا يضيف الى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لايكون موقعه من سرور النفس عظيما، ومن مصلحة الطباع كبيرا ، وهو شيء فى أصل الطباع ، وفى أساس التركيب، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبى ، فيه تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ، ويكثر دمه ، الذى هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك وببسام ، وقد ضحك النبى (صلى الله عليه وسلم) وفرح وضحك الصالحون وفرحوا ، واذا مدحوا قالوا : هو ضحوك السن ، وبسام العشيات ، وهش الى الضيف ، وذو أريحية واهتزاز ، واذا ذموا قالوا : هو عبوس ، وهو كالح ، وهو قطوب وهو شتيم المحيا ، وهو مكفهر أبدا ، وهو كريه ، ومقبض الوجه ، وحامض الوجه ، وكأنما وجهه بالخل منضوح ، وللضحك موضع وله مقدار ، وللمزح موضع وله مقدار ، متى جازهما أحد ، وقصر عنهما أحد ، صار الفضل خطلا ، والتقصير نقصا فالناس لم يعيبوا الضحك الا بقدر ، ولم يعيبوا المزح الا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذى جعل له الضحك ، صار المزح جدا والضحك وقارا » .

هذا نموذج الكلمة عند الجاحظ الذى قدم لنا فكرا عربيا اسلاميا منوعا رائعا .

(٦)

حكى الجاحظ عن نفسه قال : لم يخجلني أحد قط ، الا امرأةاعترضت طريقى وتعلقت بى ، ثم أخذت بيدى حتى صرنا الى « صائغ » فقالت له : مثل هذا .. ، ولم تزد على ذلك حرفا ، ثم تركتنى وانصرفت ، فبقيت متعجبا من أمرها ، فسألتالصائغ ، فقال : ان هذه المرأة سألتنى أن أصنع لها تمثال شيطان ، تفزع به ولدها ، فقلت لها : ذلك مالا قدرة لى عليه ، فأنى لم أر شيطانا قط ، حتى أعمل على مثاله ، وطلبت منها مثالا ، فلم ألبث أن جاءتنى بك . » ومهما قيل عن دمامة وجهه ، فقد مضى ذلك ، وبقى فكره الرائع ، وفنه الفائق ، قال أبو هفان : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته ، كائنا ماكان ، حتى انه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر ، وقد عاش كذلك دائرة معارف حية ، وعى صدره جميع معارف عصره فى الأدب والدين والعلم والفلسفة ، وطالب كتب العرب واليونان والفرس والهنود ، ولميعرف من هو أجمع بالعلوم منه .

وروى محمد بن سليمان الجوهرى ، قال : كنا نصحب « الجاحظ » فى سائر أحواله من جد وهزل ، قال : فخرجنا يوما للنزهة ، فبينا نحن على باب جامع البصره ننظرشيئا أردناه ، اذ لم نجدفيهاطائلا فتركناها ، وانصرفنا ، وتخلف الجاحظ ونحن ننتظره فأطال ، ثم رأيناه قد وزن لها شيئا وأخذ الأوراق ، وقال انتظرونى ، ومضى بها الى منزله فلما عاد أخذنا نهزأ به ، وهو يقول : فزت بقطعة من العلم وافرة ، وضحكنا فقال : أنتم حمقى والله، وان فيها ما لايوجد الا فيها .

وقد عرف مؤمنا بالعقل والحجة والتجربة ، يقول :

« ان كل منطيق محجوج (مغلوب بالحجة) والحجة حجتان ، عيان ظاهر وخبر قاهر ، فاذا تكلمنا فى العيان ، وما يفرغ منه فلا بد من التعارف

فى أصله ، والتعارف فى فرعه ؛ فالعقل هو المستدل ، « والعيان والخبر »هما علة الاستدلال وأصله ، ومجال كون الفرع مع عدم الأصل ، ويكون الاستدلال مع عدم الدليل ، والعقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن بالعقل، ولابد لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لأبطال أحدهما وجه مع ايجاب الآخر ، والعقل نوع واحد ، والدليل نوعان : أحدهما شاهد عيان يدل على غائب ، والآخر مجيء خبر يدل على صدق (١) » .

ولا يقبل الجاحظ الرأى الا بعد الاقتناع به ، ويتفحص الأمور حتى يصل فيها الى الحق :

يقول : « زعم لى ابن أبى العجوز ان الدساس (حية خبيثة) تلد ، وزعموا أن الأروية (أنثى الوعول) تلد مع كل ولد أفعى فى حشيمة واحدة، .. ولم أكتب هذا لتفز به ، ولكنها رواية أحببت أن تسمعها ، ولا يعجبنى الاقرار بهذا الخبر ، وكذلك لايعجبنى الانكار له ، ولكن ليكن قلبك الى انكاره أميل ، وبعد هذا فأعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها ، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له . وتعلم الشك فيه تعلما ، فلو لم يكن من ذلك ألا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج اليه » .

وقد عاش الجاحظ حياته الفكرية على النحو الذى صوره فى رسالة الكاتب . « ليس الكاتب الى شىء أحوج منه الى افهام معانيه حتى لايحتاج السامع لما فيه الى الروية ، ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن اللفظ السفلة والحشوية ووحشى الكلام ، وينبغى للكاتب أن يكون رقيق حواشى اللسان ، عذب ينابيع البيان اذا حاور سدد سهم الصواب الى غرض المعنى ، لايكلم العامة بكلام الخاصة ، ولا الخاصة بكلام العامة »

وقد بلغ غاية حبه للكتب أنه مات بوقوع الكتب عليه ، وبلغ من قدرته فى معرفة وجوه الكلام ، أن أحد الأمراء أرسل اليه يطلب منه أن يحتج له فى رأى فكتب له الجاحظ بما طلب ، ثم عاد يقول ان الخادم أخطأ فى تبليغ الرسالة اليه ، وقال : انما أريد أن تكتب فى نقيض هذا الرأى فلم يلبث الجاحظ أن كتب له .

---

(١) من كتاب حجج النبوة : للجاحظ .
(٢) من كتاب الحيوان .

وقد وصف طريقته بأنه لايصل الصدق بالكذب ، ولا يدخل الباطل في تضاعيف الحق ، ولا يتكثر بقول الزور ، ولا يلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن ، ولا يستر كلامه بالتأليف المونق ، ولا يستعين على ايضاح الحق الا بالحق ، ولا ايضاح الحجة الا بالحجة .

توفى (٢٥٥ هـ)

ابن حزم :

« العامل يفضل العامل فى عمله بسبعة أوجه لا ثامن لها :

وهى الماهية وهى عين الفعل ، وذاته والكمية وهى العرض فى العمل ، والكيف والكم والزمان والمكان والاضافة .

***

« المعرفة تكون (١) بشهادة الحواس (٢) بأول العقل (أى بالضرورة) وبالعقل من غير استعمال الحواس (٣) ببرهان راجع من قرب أو من بعد الى شهادة الحواس .

« ان للانسان ست حواس ، والنفس تدرك المحسوسات (المادية) بالحواس الخمس ، كعلمها أن الرائحة الطيبة مقبولة من طبعها ، وان الرائحة الرديئة منافرة لطبعها ، ولعلمها أن الأحمر مخالف للاخضر ، وكالفرق بين الخشن والأملس ، والحواس الخمس لا تدرك أحوال المحسوسات الا بالمقابلة أو التفاضل ، أو بأن يعظم الفرق بسرعة ، أى أن يجتمع منه جملة ، يمكن أن تدركها الحواس ، فالانسان لا يدرك تبدل الظل على الأرض ، الا بعد ان ينتقل ذلك الظل انتقالا يستطيع البصر أن يقدره ، وكذلك لا ترى الانسان يدرك ببصره نمو الشجرة الا بعد أن تكون قد نمت قدرا تسهل ملاحظته ، ومثل ذلك الشبع والرى ، وكثير من أعراض العالم ، أما « الحاسة السادسة » فهى علم النفس بالبديهيات ، يعنى أن هناك أمورا يدركها الانسان ذو العقل بداهة ، من غير أن يعرف دليلا عليها ، فمن ذلك علمها (أى النفس) بأن الجزء أقل من الكل ، فان الصبى الصغير فى أول تمييزه اذا أعطيته ثمرتين وبكى ، ثم زدته ثالثة سر .

***

« ان التعسف وسوء الملكة لمن خولك الله تعالى أمره من رقيق أو رعية يدلان على حساسية النفس ، ودناءة الهمة ، وضعف العقل ، لأن العاقل

الرفيع النفس العالى الهمة ، انما يغلب اكفاءه فى القوة ، ونظرائه فى المنفعة .

وأما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة فسقوط فى الطبع ، ورذالة فى النفس والخلق وعجز ومهانة ، ومن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجح بقتل جرذ ، أو بقتل برغوث ، وحسبك بهذا ضعة وخساسة ، واعلم أن العجب، أصل يتفرع عنه الزهو والتيه ، والكبر والنخوة والتعالى .

* * *

وهذه أسماء واقعة على معان متقاربة ، ولذلك صعب الفرق بينهما على أكثر الناس ، فقد يكون العجب لفضيلة من المعجب ظاهرة ، فمن معجب بعلمه يتعالى على الناس ، ومن معجب بعمله يترفع ويتعالى ومن معجب برأيه يزهو على غيره ، ومن يعجب بنفسه يتيه ، ومن يعجب بجاهه وعلو حاله يتكبر ويتنحى ، وأقل مراتب العجب أن تراه يتوفر عن الضحك ، فى مواضع ، وعن خفة الحركات وعن الكلام الا فيما لابد له من أمور دنياه ، وعيب هذا أقل من عيب غيره ، ولو فعل هذه الأفاعيل فى سبيل الاقتصار على الواجبات وترك الفضول لكان ذلك فضلا وموجبالحمدهم ،ولكن انما يفعل ذلك احتقارا للناس .

* * *

« ان كل مسلم عاقل بالغ من ذكر أو أنثى ، حر أو عبد ، يلزمه الطهارة والصيام فرضا بلا خلاف من أحد من المسلمين ، وتلزم الطهارة والصلاة المرضى والاصحاء ، ففرض على كل من ذكرنا أن يعرف فرائض صلاته وصيامه وطهارته وكيف يؤدى كل ذلك ، وكذلك يلزم كل من ذكرنا أن يعرف ما يحل له ويحرم عليه من المآكل والمشارب والملابس والفروج والدماء والأقوال والأعمال .

فهذا كله لا يسع جهله أحدا من الناس : ذكورهم واناثهم ، وأحرارهم وعبيدهم وامائهم ، وفرض عليهم أن يأخذوا فى تعلم ذلك فى حين يبلغون الحلم ، وهم مسلمون ، أو من يسلمون بعد بلوغهم الحلم ، ويجبر الامام أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم ما ذكرنا ، اما بأنفسهم ، وأما

بالاباحة لهم لقاء من يعلمهم ، وفرض على الامام أن يأخذ الناس بذلك ، وان يرتب أقواما لتعليم الجهال .

***

« وجائز أن تلى المرأة الحكم ، وهو قول أبى حنيفة ، وقد روى عن عمر أنه ولى الشفاء — امرأة من قومه — السوق ، فان قيل قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لن يفلح قوم أسندوا أمرهم الى امرأة » قلنا : انما قال ذلك رسول الله فى الأمر العام وهو الخلافة ، برهان ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « المرأة راعية على مال زوجها ، وهى مسئولة عن رعيتها » .

وقد أجاز المالكية أن تكون المرأة وصية ووكيلة ولم يأت نص من منعها أن تلى بعض الأمور .

« وجائز أن تلى المرأة الحكم ، وهو قول أبى حنيفة ، ويقول الله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .. وهذا متوجه بعمومه الى الرجل والمرأة ، والحر والعبد ، والدين كله واحد الا حيث جاء النص بالفرق بين المرأة والرجل ، وبين الحر والعبد ، فيستثنى حينئذ من عموم اجمال الدين » .

***

« فان قالوا (١) : فاوجبوا الجهاد فرضا على النساء ، .. قيل لهم : لولا قول رسول الله لعائشة — اذ استأذنته فى الجهاد « ولكن أفضل الجهاد حج مبرور » لكان الجهاد عليهن فرضا ، ولكن بهذا الحديث علمنا أن الجهاد على النساء ندب لا فرض ، لأنه عليه السلام لم ينهها عن ذلك ، ولكن أخبرها أن الحج لهن أفضل منه ، فان قالوا : فأوجبوا عليهن النفار للتفقه فى الدين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قلنا : نعم ، هذا واجب عليهن كوجوبه على الرجال ، وفرض على كل امرأة التفقه فى كل ما يخصها ، كما ان ذلك فرض على الرجال ، ففرض على ذات المال منهن معرفة أحكام الزكاة ، وفرض عليهن كلهن معرفة أحكام الطهارة والصلاة والصوم ، وما يحل وما يحرم من

---

(١) المحلى فى الفقه لابن حزم .

المآكل والمشارب والملابس وغير ذلك ، كالرجال ولا فرق .. ولو تفقهت امرأة فى علوم الديانة للزمنا قبول نذارتها ، وقد كان ذلك . فهؤلاء أزواج النبى وصواحبه قد نقل عنهن أحكام الدين ، وقامت الحجة بنقلهن ، ولا خلاف بين أصحابنا ، وجميع أهل نحلتنا فى ذلك » .

❋❋❋

« وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، ان لم تقم الزكوات بهم ، ولا فى سائر أموال المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ، ومن اللباس للشتاء ، والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس ، وعيون المارة .

(٢)

هذه مفاهيم ، ابن حزم ، ذلك الامام الفقيه الذى صور مذهبه فى كلمات :

« ما مذهبى الا انضى مطية ســواى ، ولا أن أتحلى بحلى مستعار ، التقليد حرام ، ولا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان .

لايجوز لمن يملكون أدوات الاجتهاد والعقل أن يقلدوا اماما فى كل ما يقول ، أو كل ما قال وقرر ، من غير ترجيح دليل على دليل ، والعامى والعــالم فى ذلك سواء ، وعلى كل حظه الذى يقــدر عليه من الاجتهاد ، ولا يتبع من غير أن يعرف الدليل الشرعى الذى أخذ منه الحكم ، ليكون اتباعه للدليل لا للشخص .

❋❋❋

وقد زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل ، وانها ترى وتسمع ، وهى دعوى باطلة وبلا برهان ، وصحة الحكم أن النجوم لا تعقل أصلا ، وان حركتها أبدا على رتبة واحدة لا تتبدل عنها ، وليس للنجوم تأثير فى أعمالنا ، ولا لها عقل تدبرنا به ، الا اذا كان المقصود أنها تدبرنا طبيعيا كتدبير الماء والهواء ، ونحو أثرها من المد والجزر ، وكتأثير الشمس على عكس الحر ، والنجوم فانها لا تدل على الحوادث المقبلة .

والواقع ان ابن حزم علم من أعلام الكلمة ، عرف بسعة الأفق ، والجرأة فيما أعتقد أنه الحق ، يقول الحافظ أبو عبد الله « ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين ، وقيل أنه كان يحمل علمه ، ويجادل من يخالفه فيه فكان أن نفرت منه القلوب . ولقد عاش كريم النفس عازفا عن صحبة الملوك .

وقد جعل حياته صورة فكره ، وطبق الكلمة بالعمل يقول « طالب الحق لا يصح أن يعميه التعصب لقوله عن التماسه حيث يكون ، وهو فى اخلاصه للحق لا يبغى له الغلب ، ولكن يبغى نصر الحق المجرد ، وهو مستعد لترك قوله الى قول غيره ، ان رأى عند غيره الحق السائغ الذى لا يشوبه باطل ، وكذلك يقول فيما لم يصح عندنا حتى الآن ، فنقول مجدين ومقرين ان وجدنا أهدى منه ابتغيناه وتركنا ما نحن عليه » .

وفهمه للفلسفة يتفق مع جلال الكلمة فى الربط بين الانسان والحياة ، يقول « ان الفلسفة انما معناها وثمرتها ليس شيئا غير اصلاح النفس ، بأن تستعمل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية الى سلامتها من المعاد ، وحسن سياستها للمنزل والرعية ، وهذا هو نفسه لا غيره الغرض من الشريعة » .

وقد انصرف « ابن حزم » الى العلم لم يخلط به فنا آخر ، وعظم حفظه وسيلان ذهنه ، وتمت له أدوات الاجتهاد كاملة فهو فقيه ومؤرخ وشاعر ، دقيق الملاحظة ، شيق الأسلوب ، عرف بالصراحة والاخلاص للحق ، وعرف بأسلوبه الخاص ، ورأيه المستقل ، فهو يأخذ بالعقل ويحارب الخرافات ، فقد خالفت الأقوال التى كانت تشير الى أن النيل ودجله والفرات تنبع من الجنة وتهكم على قائليها .

وقد وصفه (جورج سارطون) فقال: انه أعظم عالم فى الأندلس ، ومن أكبر المفكرين المبتكرين . فقد عرض نظرية « المعرفة » قبل « كانت » بسبعة قرون ونصف قرن .

توفى (٤٥٦ هـ)

أبو حامد الغزالى :

« فضيلة العلم شواهدها من القرآن قوله عز وجل « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط . وقال تعالى : يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، وقال « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وقوله عليه الصلاة والسلام : أفضل الناس المؤمن العالم الذى ان احتيج اليه نفع ، وان استغنى عنه أغنى نفسه ، وقوله عليه السلام : من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة » .

« وأول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره ، وعلم علمك من يجهل ، وتعلم ممن يعلم ما تجهل ، فانك اذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت .

« وعلى المرشد المعلم أن يتجنب مهلكات الأخلاق ، وهى الكبر والعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه ، والقذف والموبقات ، وعليه أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريقة التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة ، لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف .

« وعلى المتكفل ببعض العلوم أن لا يفتح فى نفس المتعلم العلوم الأخرى ، بل المتكفل بعلم واحد ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غيره وأن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة وان يقصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى اليه ما لا يبلغه عقله اقتداء بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال : نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلمهم على قدر عقولهم ، وقوله : ما أحد تحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم الا كان فتنة على بعضهم .

***

وان المتعلم القاصر ينبغى أن يلقى اليه الجلى اللائق ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا ، وهو يدخره عنه فان ذلك يضر رغبته فى الجلى ويشوش

عليه قلبه ، وأن يكون المعلم عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، فان العلم يدرك بالبصائر والعمل ، فاذا خالف العمل العلم منع الرشد . ومثل المعلم المرشد من المسترشدين ، مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينقش الطين بما لا نقش فيه . ومتى استوى الظل والعود أعوج .

« وعلى المتعلم أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم ، بل يلقى اليه زمام أمره بالكلية فى كل تفضيل ، ويذعن لنصيحته ، فلا ينال العلم الا بالتواضع . وعليه أن يكون طاهر النفس عن رزائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ، وعليه الاصغاء والادراك ، وعلى الطالب أن لا يدع فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه الا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ، طالبا التبحر ، لأن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض .

« وعلى المتعلم أن لا يخوض فى فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ويبتدىء بالأهم ، فان العمر اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبا ، فالحزم أن يأخذ من كل شىء أحسنه ، ويصرف جماع قوته فى الميسور من علمه الى استكمال العلم الذى هو أشرف العلوم .

« وان يكون قصد المتعلم فى الحال تحلية باطنة وتجميله بالفضيلة ، وفى المال بالقرب من الله والترقى الى جوار الملأ الأعلى ، وان يعلم المتعلم نسبة العلوم الى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره .

« وكل تربية لا ترمى الى ترقية الخلق السامى وتقويته ليست جديرة بأن تسمى بهذا الاسم ، والأخلاق ليست كلمات تلقن تلقينا ولا عبارات تعرف مباشرة من كتاب ، الا من كتاب الخبرة الشخصية .

« ان ظهور شرف العلم يكون من قبل العقل ، والعقل منبع العلم ومطلعه ، وأساسه ، والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة ، والنور من الشمس ، وشرف العقل سماه الله عز وجل « نورا » فى قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة » .

والعلم وحده لا يغنى بدون الأخلاق ، ويجب على المتعلم ان يتجنب كل ما يثير الشك فى نفوس الضعفاء والاقتصار على المتداول المعروف (١) .

---

(١) من كتاب احياء علوم الدين .

« البطن على التحقيق ينبوع الشهوات وبيت الأدواء ، والآفات ، اذ تتبعها شهوة الطعام ، ثم تتبع شهوة الطعام والمرأة شدة الرغبة فى الحياة والمال اللذين هما وسيلة الى التوسع فى الشهوة الجنسية والمطعومات ، ثم يستتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات ، وضروب المنافسات والمحاسدات ، ثم تتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ، ثم يتداعى ذلك الى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء ، ثم يفضى ذلك بصاحبه الى اقتحام البغى والمنكر ، وكل ذلك ثمرة اهمال المعدة وما يتولد منها من بطء الشبع والامتلاء ، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق به مجارى الشيطان لاذعنت لطاعة الله عز وجل » .

***

« اللهم من كان على هوى أو رأى وهو يظن انه الحق ، وليس هو الحق فرده الى الحق ، حتى لا يضل من هذه الأمة أحد ، اللهم لا تشغل قلوبنا بما تكلفت لنا به ، ولا تجعلنا فى رزقك خولا لغيرك ، ولا تمنعنا خير ماعندك بشر عندنا ولا ترانا حيث نهيتنا ، ولا تفقدنا حيث أمرتنا .

اللهم اعزنا بالطاعة ، ولا تذلنا بالمعصية ، اللهم انا نعوذ بك من الفقر الا اليك ، ونعوذ بك من الذل الا لك . اللهم لا تكثر علينا فنطغى ولا تقلل علينا فننسى » .

***

« ان الصبر تختلف أسماؤه باختلاف ما يصبر عليه المرء منه ، فان كان صبرا عن شهوة البطن سمى عفة ، وان كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس وضده البطر ، وان كان فى الحرب سمى شجاعة وضده الجبن ، وان كان فى كظم الغيظ سمى حلما وضده التذمر ، وان كان فى نائبة مضجره سمى سعة الصدر ، وان كان فى اخفاء كلام سمى كتمان السر ، وان كان فى فضل العيش سمى زهدا ، وان كان على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ، والصبر عن المحظور فرض ، وعن المكروه نفل ، وعن أذى الناس فضيلة .

(٢)

وكان « الغزالى » الذى ملأ الدنيا علما قد اعتقل لسانه ومر بتجربة صورها فى كتابه « المنقذ من الضلال » :

« لم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت بلوغ العشرين الى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته ، خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل ظلمة وأتهجم على كل مشكلة وأقتحم على كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأغير بين حق وباطل ، فقد كان التعطش الى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى ، فى أول أمرى ، وريعان عمرى ، غريزة وفطرة من الله ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحطت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا ، ثم انى لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهيمه وتزييف ما يزيف منه ، علمت أن ذلك أيضا غير واف بكمال الغرض ، وان العقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات .

وكان قد ظهر عندى أنه لا مطمع فى سعادة الآخرى الا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة الى الله تعالى . وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعوائق ، ثم لاحظت أحوالى ، فاذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد أحدقت بى من جميع الجوانح ، ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس ، فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى . بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أننى على شفا جرف هار ، وانى قد اشرفت على النار ، ان لم اشتغل بتلافى الأحوال ، فلم أزل أفكر فيه مدة ، وأنا بعد على مقام الاختيار ، مصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارق تلك الأحوال يوما ، وأجل العزم

يوما وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه اخرى ، لا تصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة ، الا ويحمل طلبها جند الشهوة حملة فتغيرها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها الى المقام ، ومنادى الايمان ينادى : الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر الا القليل .. وبين يديك السفر الطويل .. وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ، فان لم تستعد من الآن للآخرة فمتى تستعد » .

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، فتحرك باطنى الى حقيقة الفطرة الأصلية وحقيقة العقائد العارضة ، بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق عن الباطل اختلافات ، فقلت فى نفسى : أولا ، انما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هى ، فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ثم علمت أن كل مالا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى ، ثم فتشت عن علومى فوجدت نفسى عاطلا ، من علم موصوف بهذه الصفة الا فى الحسيات والضروريات ، فأقبلت بين بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات ، وأنظر : هل يمكننى أن اشكك نفسى فيها ؟ فانتهى بى طول التشكيك الى أن لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات أيضا .

فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا ، فلعله لا ثقة الا بالعقليات ، التى هى من الأوليات ، فقالت المحسوسات : لم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقا بى فجاء حاكم العقل فكذبنى ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ، فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخر ، اذ تجلى كذب العقل فى حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الادراك لا يدل على استحالته . فتوقفت النفس عن جواب ذلك قليلا ، فلما خطرت لى هذه الخواطر ، وانقدحت فى النفس ، حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ، ولا يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الأولية .

فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل ، فاعضل هذا الداء ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة ، بحكم الله ، لا بحكم المنطق والمقال .

حتى شفى الله تعـالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصـحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها عن أمن ويقين ، ذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف .

***

« قطعت علينا الطريق وأخذ اللصوص جميع ما معى ومضوا ، فتبعتهم ، فالتفت الى رئيسهم وقال : ارجع والا هلكت فقلت له : أسألك بالله أن ترد على حافظة « كتبى » فقط فما هى شيء تنتفعون به . فقال لى : وما هى :

قلت : كتب فى المخـلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمهـا . فضحك وقال : وكيف تدعى انك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم . ثم أمر بعض أصحابه فسلم الى الحافظة فلما وافيت « طوس » أقبلت على الاشتغال بالعلم ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما بها وصرت بحيث لو قطعت على الطريق لم أتجرد من علمى .

(توفى ٥٠٥ هـ)

ابن رشـــد :

« ان الفلاسفة وان كانوا قد أخطأوا أحيانا فى التأويل ، الا انهم كانوا مخلصين فى محاولتهم ، ولذلك لا يجوز تكفيرهم بوجه من الوجوه ، واذا فللمخطىء من أرباب البرهان أجر واحد ، ولو أصاب لكان له أجران ، أما من ليس من أهل البرهان فخطؤه فى الفروع بدعة . وفى الأصول كفر ، أما الجمهور فلا بد من منعه عن تداول المعانى المؤولة .

***

« ان الكثير من الفقر يرجع الى أن الرجل يمسك المرأة لنفسه ، كانها نبات أو حيوان أليف ، لمجرد متاع فان يمكن أن يوجه اليه جميع المطاعن ، بدلا من أن يمكنها من المشاركة فى انتاج الثروة المادية والعقلية وفى حفظها .

***

« يجب (١) علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك سواء كان ذلك الغير مشاركا أو غير مشارك فى الملة ، فان الآلة التى تصح بها التزكية ليس يعتبر فى صحة التزكية ، بل كونها الة المشارك لنا فى الملة ، أو غير المشارك . اذا كانت فيها شروط الصحة . وأعنى بغير المشارك من نظر فى هذه الأشياء من القدماء ، قبـل ملة الاسلام ، واذا كان الأمر هكذا ، وكان كل ما نحتاج اليه من النظر فى أمر المقاييس العقلية قد فحص عند القدماء أتم فحص ، فقد ينبغى أن نضرب بأيدينا الى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك ، فان كان صوابا قبلناه منهم ، وان كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه .

ويجب علينا ان ألقينا لمن تقدمنا من الأمم السالفة نظرا فى الموجودات ، واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان ان ننظر فى الذى قالوه من ذلك وما اثبتوه فى كتبهم ، مما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم ، وسررنا

(١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة لابن رشد .

به وشكرناهم عليه ، وما كان منها غير موافق للحق ؛ نبهنا عليه ، وحذرنا منه وعذرناهم .

« ان النظر فى كتب القدماء واجب بالشرع » .

***

ذلك « ابن رشد » الذى وصفه القاضى مروان بأنه كان حسن الرأى ذكيا ، قوى النفس ، أقبل على علم الكلام والفلسفة وعلم الأوائل حتى صار يضرب به المثل ، وقيل أنه كان يقصد فى الفتوى سواء فى الطب أو الفقه ، وكان مميزا فى علم الطب . وعرف عند الغربيين باسم « أفروس » .

درس الشريعة على طريقة الأشعرية ، وتخـرج فى الفقه على مذهب مالك ، وفى سن الثامنة والعشرين سافر الى مراكش ، حيث اتصل ببلاط الخليفة عبد المؤمن .

***

يقول عن الحرية : « ان الانسان ليس حرا على الاطلاق ، ولا مطلقا بغير قيد ، أى أنه ليس مخيرا بقضاء الأحوال الخارجة فالعلة الموثرة كامنة فينا ، أما العلة العرضية فخارجة عنا ، لأن ما يجذبنا مستقل عنا وناشىء من قوانين طبيعته ، أى عن العناية الالهية .

ويقول : ان النفس متصلة بالجسم ، اتصال الصورة بالمادة .

***

وقد قعد « ابن رشد » أصول البحث العلمى المنهجى وسبق به الغرب فى نظرته الى علم السابقين ، ويبدو أثره واضحا فى خروج الغربيين على قيود الفكر الكنسى وتمسكهم بمبدأ حرية الفكر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة ، وقد كان لآراء ابن رشد أثرها العنيف الذى أحدث ضجة كبرى فى أوربا مما اضطرت معه الكنيسة فى القرن الثالث عشر الى تحريم تعليم وقراءة آرائه بل وأحرقت كتبه .

(توفى ٥٩٥ هـ)

ابن سيناء :

« ينبغى لغنم الصبى أن يجنبه « مؤدبة » يفاع الأخلاق وينكب عنه معايب العادات ، بالترهيب والترغيب والايناس والايحـاش ، وبالأعراض والاقبال ، وبالحمد مرة وبالتوبيخ أخرى ما كان كافيا .

. « ينبغى أن يكون مؤدب الطفل عاقلا ذا دين ، بصيرا برياضة الأخلاق حاذقا بتخريج الصبيان ، وقورا رزينا بعيدا عن الخفـة والسخف ، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبى ، غير كز ولا جامد ، بل حلوا لبيبا ، ذا مروءة ونظافة ونزاهة ، قد عرف آداب المجالسة وآداب المؤاكلة والمحادثة والمعاشرة .

« انه ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مؤاتية ، لكن ما شاكل طبعه وناسبه ، وانه لو كانت الصـناعات والآداب تجنب وتنقاد بالطلب والمرام ، دون المشاكلة والملائمة ، اذن ما كا نأحد غفلا من الأدب ، عاريا من صناعة ، واذن لأجمع كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات

لذلك ينبعى لمؤدب الصبى اذا رام اختيار الصناعة — أن يزن أولا طبع الصبى ، ويسبر قريحته ، ويختبر ذكائه ، فيختار له الصناعات بحسب ذلك ، فاذا اختار له احدى الصناعات تعرف قدر ميله اليها ورغبته فيها ، ونظر هل جرت منه على عرفان أم لا ، وهل أدواته وآلاته مساعدة له عليها أم خاذلة .

« على (الانسان) أن يعاهد الله بتزكية نفسه بمقدار ما وهب لها من قوتها ليخرجها من القوة الى الفعل ، عالما من عوالم العقل فيه الهيئة المجردة من المادة وتحصيل كمالها من جهة العلم والحكمة ، ثم يقبل على هذه النفس المتربية بكمالها الذاتى فيحرسها من التلطخ بما يشينها من الهيئات الانتقادية للنفوس المادية .

وان كل انسان مفطور على قوة بها يفعل الأعمال الجميلة ، وتلك القوة بعينها تفعل الأفعال القبيحة ، والأخلاق كلها الجميل منها والقبيح مكتسبة ، يكتسب الانسان الخلق الجميل ، أو ينقل من الخلق الذميم بارادته .

(٢)

وابن سينا قمة من القمم الشامخة فى تاريخ الكلمة ، ظل يضيء كالنور القوى خـلال ألف عام حتى شمل أوربا كلها ، بنى حجرا ضخما فى بنـاء الحضارةالانسانية ، وأقام ركنا من أركان الطب الحديث ، وكان علما من أعلام الانسانية لا سبيل الى جحوده والاغضاء عن فضله وأثره ، ولم يجد أستاذا ولا معهدا يتتلمذ عليه فكان أستاذ نفسه فقرأ واستوعب مئات الكتب التى صادفته فى أسواق الوارقين ، فحفظ القرآن ودرس الطبيعيات وقرأ للفارابى وطاف بالأقطار المختلفة ، حيث غادر بلدته « بخارى » واستقر فى « همدان » من بلاد بحر قزوين يقرأ ويترجم ويبحث ويجادل ، وكان مقصد العظمـاء والأعلام ، يعالج أدواءهم ويشفى مرضاهم ، وفى خـلال ذلك ألف كتابه الضخم الذى ظل مرجعا وحيدا للباحثين والدراسين فى جامعات الأندلس ثم فى مختلف جامعات أوربا ، وهو كتاب (القانون فى الطب) هو خلاصة تجاربه وقراءاته وملاحظاته وفيه صنوف جديدة من الأمراض لم يسبق أحد اليها ، وما زال هذا الكتاب يمثل الأساس الأول لنهضة الطب الحديث ، وقد ترجم الى اللاتينية فى القرن الثانى عشر ، وعرف فى أوروبا خلال القرن الخامس عشر على انه (انجيل الطب) وطبع لأول مرة عام ١٤٧٣ وقد ألف ابن سينا أو الشح الرئيس كما اطلق عليه من بعد ، تسعين كتابا فى العلوم المختلفة ، منها كتاب الشفاء وهو دائرة معارف للأبحاث الفلسفية .

وقد خالف ابن سينا ارسطو وافلاطون فى كثير من النظريات والآراء ولم يتقيد بها ، بل أخذ منها ما اقتنع به ووافق مزاجه ودينه ومن ذلك قوله « حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء وقد آن لنا ان نضع فلسـفة خاصة بنا » .

(توفى ٤٢٨ هـ)

ابن خلدون :

ان الاجتماع (١) البشرى لا يخلو من بداوة وحضارة ، وان البداوة أصل لكل حضارة ، وهى تستلزم بالطبع العصبية ، العصبية تستلزم الاستقلال ، وفقدانها يسبب الاضمحلال ، وان البداوة تستلزم الخشونة والنشاط ، وهما يستلزمان الغلب والاستيلاء على أهل الحضر والاندماج فيه .

***

ان نشوء الحضارة أو اضمحلالها لا يكون طفرة بل يقتضى انقضاء نصف قرن ، أو أربعين سنة على أقل تقدير حتى يكون تأثير كل قد شمل النشء والشبان والكهول . وان تأسيس الدول أو غلبة أمة على أمة لا يكون الا بدافع نتيجة ضعف المغلوبة ضعفا لا مقاومة فيه بعصبية أو قوى أخرى معنوية .

***

ان التغلب على الأمم القوية بالعصبية ، أو كثرة العدد ، لا يكون بالمطاولة لا بالمناجزة ، وان المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وعاداته ، وان الأمة اذا غلبت وصارت فى ملك غيرها (من كل وجه) أسرع اليها الفناء ، وان الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل ان تحكم فيها دولة ، وان الحضارة فى الأمصار تدوم وترسخ برسوخ الدول وطول عمرها .

انما يكون التعليم مفيدا اذا كان على التدريج مراعى فيه استعداد الطالب بأن يقرأ له الفن ثلاثا ، يلقى عليه فى الأولى أصول المسائل وتشرح

---

(١) مقدمة ابن خلدون : تلخيص الشيخ احمد السكندرى (مجلة المجمع العلمى م ٩)

(٢)

بالاجمال ، وتخـرج بالثانية الى التفصيل ، وذكر الخـلاف ووجوهه ، ويستقصى فى الثالثة كل عويص ويوضح كل مقفل » .

هذا ابن خلدون الذى شهد له عديد من أعلام الفكر الغربى بأنه أول من قال بمبدأ الحتمية الاجتماعية ، وانه بذلك يكون قد اكتشف مبـادىء العدالة الاجتماعية والاقتصـاد السياسى قبـل كونسيدران وماركس وباكونين بخمسة قرون .

وقد أشار ارنولد توينبى الى ان ابن خلدون فى المقدمة التى كتبها لتاريخه العام ، قد أدرك وانشأ (فلسفة للتاريخ) ، وهى بلا شك أعظم عمل من نوعه ، أبدعه أى عقل بشرى فى أى زمان ومكان ، وقال « سارطون » فى كتابه : « مدخل لتاريخ العلم » ، انه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل فى تفكيره الى اصطناع ما يسمى اليوم بطريقة البحث التاريخى .

وقال لدوفيح جمبلوفنج : ان ابن خلدون قد سبق فى آرائه أقطاب علماء الاجتماع المحدثين ، فهو مثلا قد اكتشف نظـرية (الأجيال الخاصة بظهور الأسرار ونهوضها) من قبل أن يعرفها (أوتوكار لونيس) فى أواخر القرن التاسع عشر .

وكذلك عرف ابن خلدون قانون « التشبيه بالوسط » قبل أن يعرفه العالم الطبيعى « دارون » بخمسة قرون ، كما اكتشف ابن خلدون مبدأ (وجود المادة) قبل ان يكتشفه العالم البيولوجى الألمانى « ارنست هيجل » بأكثر من خمسة قرون .

وابن خلدون هو العالم الذى « قعد » التاريخ ووضع فلسفته ، والسائح الذى طوف بالأرض والانسان الذى عاش قلقا لا يستقر .

كانت عبقريته تدفعه الى عمل وعمل ، فاذا بالدنيا تتجمع ضده ، ومن أولئك الذين عاشوا وهم يحسون انهم لم يصلوا الى المنزلة التى هم أهل لها ، أو التى يستحقونها .

لمع اسمه فى أنحاء المملكة الاسلامية لمعان النجم ، ولكنه كان يرى نصبه دون ما يريد ، وفى خلال جولته التقى بعشرات من الملوك والسلاطين وعمل معهم ، ورأى « تيمور » المغولى يجتاح الشام ، وتيمور الاسبانى يتأهب للوثوب الى غرناطة آخر حصن الاسلام فى الأندلس ، وسافر ابن خلدون الى الأندلس وأمضى سنوات فى غرناطة ثم قشتاله ، ثم عاد الى بجايه بالمغرب ، ثم قصد الى تلمسان . وعاد الى مسقط رأسه فى تونس ، ولكنه لم يكد يستقر فى احداها ، فنزح الى مصر حيث درس فى الأزهر وقرأ الفقه على مذهب مالك وسافر الى الحجاز ثم عاد الى مصر .

وكما وضع الشافعى أصول الفقه ، وضع ابن خلدون أصول التاريخ ، وقد رسمت (مقدمة ابن خلدون) صورة واضحة لتلك العقلية النادرة فى فهم التاريخ ، وأسرار الأمم ، ونظم العمـــران ، وطبيعة الأقاليم ، ومظاهر البداوة والحضارة ، ومعالم الانسان والملك والسياسة .

ومن عجب أن كتب ابن خلدون هذه المقدمة الخطيرة فى خمس شهور ، وقد اعترف الفكر الغربى أخيرا بابن خلدون : «موجد علم الاجماع» ، وان كان ابن خلدون قد سبق بارسطو الذى أشار الى بعض حقائق علم الاجتماع ، فان فضل (ابن خلدون) كان واضحا فى أنه أول من استطاع أن يكشف عن ان علم الاجتماع يقوم على قوانين طبيعية وضرورية تعمـــل عمـــلا ديناميا حيا فى كل زمان ومكان ، وجعـــل علم الاجتماع أساسا للتاريخ ، وانه علم الاجتماع يضم مظاهر كثيرة كعلوم السياسة والاقتصاد وبعد ابن خلدون بخمسمائة عام قال الفكر الغربى : ان هذه العلوم مظاهر فى علم الاجتماع .

وقد أوجب ابن خلدون الموازنة بين الروايات المختلفة ، وفهم التاريخ على انه حركة اجتماعية لا وصف لحياة الملوك ولا تعداد للمعارك .

(توفى فى عام ٨٠٨هـ)

النظـــام :

« من حق المال على ان أطلبه من معدنه ، وأصيب به الفرصة عند أهله ، ومن حقي عليه ان يقيني السوء بنفسه ، ويصون عرضي بابتذاله ، ولا يفعل ذلك الا بأن اسمح به ، الا ترى ذا الغنى ما أدوم نصبه ، وأقل راحته ، وأخس حظه ، وأشد ضرره ، ثم هو بين سـلطان يرعاه ، وذوى حقـوق يسبونه ، واكفاء ينافسونه ، وولد يرقبون فراقه ، قد بعث عليه الغنى من سلطانه العناء ، ومن اكفائه الحسد ، ومن أعدائه البغى ، ومن ذوى الحقوق الذم ، ومن الولد الملال ، وذو البلغة قنع فدام له السرور ، ورفض الدنيا فسلم من المحذور ، ورضى بالكفاف فتنكبته الحقوق .

« العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فان اعطيته كلك فأنت من اعطائه لك البعض فى خطر .

***

وقد كان ابرهيم النظـام من ابرع المعتزلة ، قال عنه الغـزالى : انه مأمون اللسـان قليـل الزلل والزيغ فى بعض الصـدق ، جيـد القياس ، جيد الاستنباط ، وهو من أول علماء الاسلام الذين عرفوا باستقلال الفكر ، عاش عصر المناظرات الحية فى المجالس .

وقال النظام ان الشك سبيل الانسان الى كل يقين ، وان طالب العلم لا يكون كحاطب ليل ، بل ينبغى ان يتخير مما فيها ، ولا يسمح أن يدخل فى نفسه الا الجيد المنتقى وعنده أن الكتب لاتحى الموتى ولا تحول الأحمق عاقلا ، ولا البليد ذكيا ، ولكن الطبيعة اذا كان فيها أدنى قبول ، فالكتب تشحذ وتفتق وترهف وتشفى .

(توفى ٢٢١ هـ)

الرازى :

ان البارى — عز اسمه — انما اعطانا العقل وحيانا به لننال ونبلغ من المنافع العاجلة والآجلة ، غاية ما فى جوهر مثلنا بلوغه . وان أعظم نعم الله عندنا وانفع الأشياء لنا وأجداها علينا ، وبالعقل أدركنا جميع ما ينفعنا ، ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل الى بغيتنا ومرادنا ، وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة منا الخفية المستورة عنا ، وبه وصلنا الى معرفة البارى عز وجل ، الذى هو أعظم ما أستدركنا وأنفع ما أصبنا .

وقد كان « الرازى » فى شبيبته يضرب بالعود ويغنى فلما التحى وجهه قال : كل غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستطرف ، وعندما سئل عن أفضل مكان فى بغداد لاقامة (بيمارستان) عليه ، التجأ الى طريقة علمية : علق قطعة لحم فى كل ناحية من نواحى بغداد .

وأعلن أنه أصلح مقام فيه ، هو الذى يتأخر فيه فساد قطعة اللحم من النواحى ..

وقد أقبل الرازى على دراسة كتب الطب والفلسفة فقرأها مستوعبا دقائقها ، غادر الرى الى بخارى يرتاد مناهل العلم ، ثم قصد خراسان وتعلم على ابن سينا والفارابى ووقف على تصانيفهما .

وقد ألف كتبا كثيرة فى علوم الفلسفة وله كتاب فى الهندسة ، وله كتاب الجامع فى الطب ، وهو طرفة من طرائف الفن .

وله عقلية رياضية فذة ، ولم يأخذ الرازى بالتقليد ، ولكنه نقد آراء الأطباء قبله ، وله فى هذا البحث (شكوك الرازى على كلام جالينوس) وكتابه الحاوى فى الطب فى ثلاثين مجلدا .

وهو أول من طبق علم الكيمياء فى علم الطب ، حتى انه ينسب شفاء المريض الى تفاعل كيمائى فى جسمه ، ويجعل مزاج الجسم تابعا لأخلاق النفس وهى من أحدث نظريات العلم الحديث .

وهو أول من استكشف ما سماه « زيت الزاج » وهو حامض الكبريتك « الكحول » ، وقد ظل كتابه الحاوى الذى ترجم الى اللاتينية مرجعا للاوربيين ، الى منتصف القرن الرابع عشر .

قال عنه الدكتور وينسون : انه كان يعالج الأمراض التناسلية كما نعالجها فى أيامنا هذه ، واليه ينسب اختراع الفتيلة فى الجراحة .

(توفى ٣١١ هـ)

ابن مسكويه :

« اعلم أن مشاركة الصديق فى السراء وان كانت واجبة عليك ، حتى لا تستأثر ولا تختفى بشىء منها ، فان مشاركته فى العزاء أوجب وموقعها عنده أعظم .

وانظر عند ذلك ان اصابته نكبة أو لحقته مصيبة ، أو عثر به الدهر ، كيف تكون مواساتك له بنفسك ومالك ، وكيف يظهر له بفقدك ومراعاتك ، ولا ينتظر به أن يسألك تصريحا أو تعريضا ، بل اطلع على قلبه واسبق الى ما فى نفسه وشاركه فى مضض ما لحقه ليخفف عنه ، واذا بلغت مرتبة من السلطان والغنى فاغمس أخوانك فيها من غير امتنان ولا تطاول ، وان رأيت من بعضهم نبوا عنك أو نقصانا مما عهدته فداخله زيادة مداخله ، واختلط به واجتذبه اليك ، فانك ان أنفت من ذلك أو داخلك شىء من الكبر والصلف عليهم انتقض حبل المودة وانتكثت قوته » .

***

وابن مسكويه واحد من نوابغ الفكر العاملين ، له معرفة تامة بعلوم الأقدمين صحب ابن العميد وكان يخدمه فى مكتبه ، واحب علم الكيمياء ، ومن قوله الملوك هم أشد الناس فقرا لكثرة حاجتهم الى الناس وقال بمحبة الجميل لأنه جميل ، ودعا الى الصمت فى أوقات حركة النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل ، وقال بحسن احتمال الفقر والغنى ، والاشفاق على العمر المضيع .

أهم كتبه « تجارب الأمم » وقد حرر فيه قضية الخليقة بعد الطوفان حتى عام ٣٧٢ هـ وله كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، وكتاب الفوز الأصغر فى علم النفس ، وله كتب الأدوية المفـردة ، والأشربة ، وآداب العرب والفرس • عرف بالبحث التـاريخى ، والفلسفة والكيمياء والمنطق ، وله ولع بالأدب والانشاء .

(توفى ٤٢١ م)

ابن طفيـــل :

« الأخلاق الحميدة هى التى لا تعترض الطبيعة فى سيرها ، والتى لا تحول دون تحقيق الغاية الخاصة بالموجودات ، فمن طبيعة الفاكهة مثلا أن تخرج من زهرتها ، ثم تنمو وتنضج ثم تسقط نواها على الأرض ليخرج من كل نواه شجرة جديدة ، فاذا قطف الانسان هذه الشجرة قبل ان يتم نضجها ، فان عمله هذا يعد بعيدا عن الأخلاق ، لأنه يمنع النواة التى لم يتم نموها ونضجها ، بعد ان تحقق غايتها فى هذا الوجود ، وذلك اخراج شجرة من نسلها .

« ان الأخلاق الكريمة تقضى على الانسان بأن يزيل العـوائق التى تعرض الحيوان والنبات فى سبيل تطوره وتحقيق غايته من الوجود ، فاذا وقع نظره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه وجب على الانسان أن يزيل ذلك الحاجب .

ان الخلق هو أن تجرى الطبيعة فى كل شىء مجراها » .

***

واذا ذكر ابن الطفيل ذكر عمله الضخم « حى بن يقظان » الذى ما زال يهز دوائر الفكر الغربى ، ويكتب للكلمة المسلمة واللغة العربية فى مجالات البحث العلمى الحديث آثارا خالدة ، فقد أظهر نمو الانسان درجة فدرجة فى شخص انسان منقطع ، بعيد عن مشاغل الحياة سليم من آثامها وأدرانها ، فجعله مخلوقا نما عقله فى الانفراد المطلق بذاته ، وتنبه فكره بقوته ، وبدافع من العقل الفعـال ، فأحاط بفهم أسرار الطبيعة ، وحل أعضـل المشـاكل الالهية ».

وكان ابن الطفيل فلكيا ورياضيا وطبيبا وشاعرا ، حريصا على الجمع بين علمى الشريعة والحكمة .

وهو أول فيلسوف اسلامى وضع الفلسفة فى قالب قصصى ، ولد بوادى (آش) احدى مدن ولاية غرناطة ، وتوفى فى مراكش ١١٨٥ م كان أعرف الناس بكلام العرب ، وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والاسلام .

وقد كانت قصة « حى بن يقظان » مصدرا لعدد كبير من القصص الأوربى ، كقصة روبسكروزو ، وجفلر بعد ان ترجمت الى اللغات الغربية .

(توفى ٥٨١ هـ)

الفـــارابى :

« ان عناية الله محيطة بالأشياء جميعها ، وان الخير فى العالم أكثر من الشر . وان الدين والفلسفة لا يتناقضان ، وليس بينهما اختلافات جوهرية ، ذلك لأنهما يتفرعان من أصل واحد يحوى المعرفة والحق والحياة ، وهـــو العقل الفعال ، الذى هو فعال دائما ، والمتحقق تحققا تاما وهو الله ، وهـــذا العقل الفعال هو المنهل الذى ينهل منه الفلاسفة والأنبياء ، واذا كان المصدر واحدا فالفلسفة والدين واحد ، واذا كانت هنـــاك متناقضات فتكون فى الظواهر لا فى البواطن .

***

ان السعادة ممكنة على وجه الأرض إذا تعاون المجتمع على نيلهـــا بالأعمال الفاضلة ، وان كل مدينة يمكن أن تنال بها السعادة ، ولكن أكمل اجتماع انسانى هو الاجتماع الذى يشمل على جميع أمم الأرض ، وأحسن دولة تنال بها السعادة هى الدولة الكبرى .

***

ان روابط الاجتمـــاع التشابه بالخلق والشيم الطبيعية والاشتراك فى اللسان واللغة والاشتراك فى المنزل ، ثم الاشتراك فى المساكن والمدن وأعلى هذه الروابط كلها رابطة العدالة .

***

« القصد فى الأعمال يكون بالعلم ، وذلك ان تمام العلم بالعمل ، واما بلوغ الغاية فى العمل فيكون أولا باصلاح الانسان نفسه ثم اصلاح غيره ، ممن فى منزلته أو فى مدينته .

***

ان الفيلسوف هو الذى يحصل العلم الكلى ولا يقف عند هذه الحدود بل يتعداها الى العمل ، وتكون له قوة على استعماله ، وتحقيق هذه الرسالة

يخرج الفيلسوف الى حياة العمل والكفاح والاختلاط بالناس حتى يتمكن الفيلسوف من القيام بما عليه من تبعات وواجبات هى اصلاح الفرد والجماعة .

***

السعادة هى أن تصير نفس الانسان من الكمال فى الوجود بحيث لا يحتاج فى قوامها الى المادة ، وذلك ان تصير فى جملة الأشياء البريئة عن الأجسام ، وفى جملة الجواهر المفارقة للمواد ، وان تبقى تلك الحال دائما » .

وأبو النصر محمد الفارابى علم من أعلام الفلسفة والعلم والموسيقى صال فى الرياضة والطب والموسيقى وبرع فى اللغات ، يمتاز أسلوبه بجزالة العبارة ووضوح المعانى ، قال : قرأت « السماع الطبيعى » لارسطو الحكيم أربعين مرة ، وأرى انى محتاج الى معاودة قرائته .

ودخل عليه العلماء عند سيف الدولة فأخذ يكلمهم فى كل فن حتى سكتوا عن الكلام وأخذوا يكتبون ما يقول .

وصفه ابن القيم الجوزية فى كتابه (اغاثة اللهفان) بأنه سمى المعلم الثانى ، لأنه وضع التعاليم الصوتية كما وضع أرسطو المنطق فلقب بالمعلم الأول ، وهو أول من وضع علم الموسيقى وقيل أن أثره فى الفلسفة طغى على أثره فى الموسيقى ، وقيل انه بذ جميع الفلاسفة فى صفة المنطق وأربى عليهم فى التحقيق ، وقد صنع الفارابى آلات الطرب ووضع قواعد التوقيع .

وروى ابن أبى صبيعة أنه صنع آلة اذا وقع عليها احدثت انفعالا فى النفس فيضحك السامع ، ثم يبكيه ، ويستخفه ، ثم يستفزه ، وقال بعضهم انها شبيه بالقانون المعروف لعهدنا هذا ، وشرح تمــوج الهواء فى رنات الأوتار . وكان يحلم بتنظيم المجتمع الانسانى وقهر الفلسفة اليونانية للعقائد الاسلامية .

(توفى ٣٥٠ هـ)

ابن الهيثـــم :

أجمع العلماء بأنه « لولاه لما كان علم البصريات » أخذ عنه « كيلر » معلومات عن الضوء ، ولا سيما فيما يتعلق بانكساره فى الجو ، أقام بحثه على الاستقراء والقياس والاعتمـاد على المشاهدة والتجربة ، وهو أول من قرر بأن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين فى اتجاه المنظور ، بل بواسطة أشعة تطلقها الأجسام المضيئة الى العين التى نراها بواسطة جسمها الشفاف .

والحق أنه لم يجتمع لعالم ما اجتمع لابن الهيثم ، كان بارعا فى الفلسفة والطب والهندسة والرياضة والفلك ، فألف ثلاثة وأربعين سفرا فى الفلسفة والعلم الطبيعى ، وخمسة وعشرين كتابا فى الرياضيات ، وأنشأ فى الطب كتابا بلغ ثلاثين جزءا ، وظل كتابه « الذخيرة » المرجع الأول لكل علماء الطبيعة فى أوربا حتى القرن السابع عشر الميلادى ، وقد نقل من اليونانية الى العربية كتب الفلسفة والعلم من هندسة ومخروطات وجبر وارطماطيقى وفلك .

وأتيح له أن يدرس كتب الأقدمين فى الطب والفلسفة والمنطق ، وهو الذى تنبأ ببناء « السد العالى » قال وهو فى البصرة « لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان » فلما جاء الى مصر ، درس أحوال النيل ، ولكنه عرف من بعد أن ما يطلبه ليس مستطاعا ، وقد وصل الى موضع الجنادل قبلى مدينة اسوان ، فوجد أن هذه المنطقة لا تتمشى مع مراده .

قال سارطون « ان ابن الهيثم أعظم عالم ظهر عند العرب فى علم الطبيعة فى القرون الوسطى ، ومن علماء البصريات القليلين المشهورين فى العالم كله ، وقد أشارت دائرة المعارف البريطانية ، الى ان ابن الهيثم كان أول مكتشف ظهر بعد بطليموس فى عام البصريات .

بعد ان امتزجت فى نفس المعانى والمراجع القديمة ، وتبلور طابعه الشخصى .

وقد بدأ (ابن الهيثم) يكتب فى سن الثالثة والستين ، وفى القاهرة ،

ويعد ابن الهيثم من آوائل من تعدوا المنهج العلمى فى الفكر العربى الاسلامى سابقا به فكر الغرب ، يقول :

« يبتدىء فى البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات ، وتميز خواص الجزئيات ، ويلتقط باستقراء ما يخص البصر فى حال الأبصار ، وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه فى كيفية الاحساس ، ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ فى الغلط فى النتائج ، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقر به ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى فى سائر ما نجيزه وننتقده طلبا للحق الذى به يثلج الصدر ، ونصل بالتدريج واللطف الى الغاية التى عندها يقع اليقين ، وتظهر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف وتنحسم به مواد الشبهات » .

(توفى ٤٣٠ هـ)

ابن القيـــم :

« الواجب طلب الحق ، وبذل الاجتهاد فى الوصـــول اليه بحسب الامكان ، ان الاعتبار فى العقود والأفعال بحقائقها ومقاصدها ، دون ظواهر ألفاظها وأفعالها ، وان القصد روح العقد ومصححه ومبطله ، فاعتبار المقصود فى العقود أولى من اعتبار الألفاظ ، فان الألفاظ مقصودة لغيرها ، ومقاصد العقود هى التى تراد لنفسها ، وقد تظاهرت أدلة الشرع وقواعده على أن المقصود فى العقود معتبرة ، أنها تؤثر فى صحة العقد وفساده ، وفى حله وحرمته ، وان المتعاقدين وان أظهرا خلاف ما اتفقا عليه فى الباطن فالعبرة لما اضمراه واتفقا عليه وقصداه بالعقد .

« بالصبر والفقر تنال الأمامة فى الدين ولابد للسالك من همة تسيره وترقيه ، وعلم يبصره ويهديه » ذلك رأى ابن القيم الجوزيه ، صديق ابن تيمية وتلميذه وصفيه ، والذى سجن معه فى القلعة وطيف به مضروبا بالعصى فلما توفى ابن تيمية افرج عنه .

قرأ العربية على ابن أبى الفتح ، وقرأ الفقه والأصول على ابن تيمية ، وعرف بجرأة اللسان وسعة العلم ، وكان كثير الصـــلاة والتـــلاوة حسن الخلق ، كثير التودد ، لا يحسد ولا يحقد ، متعبدا يطيل ركوعه وسجوده . ويجمع الكتب ، وقد انتصر لابن تيمية وهذب كتبه ونشر علمه ، ولكنه ظل واضح الرأى مستقل الفكر وهو طويل النفس مهيب ، يتعمد التوضيح والافاضة ، ويختلف عن أستاذه بان له نزعة الى التصوف والزهد .

(توفى ٧٥١ هـ)

القزوينى :

« كيف يقوم هذا الحيوان الضعيف (النحل) بعمل هذه المسدسات المتساوية الاضلاع التى يعجز عن مثلها المهندس الحاذق مع الفرجار والمسطرة ومن أين له هذا الشمع الذى اتخذت منه بيوتها المتساوية التى لا يخالف بعضها بعضا كأنها أفرغت فى قالب واحد ، ومن أين لها هذا العسل الذى أودعته فبات ذخيرة للشتاء ، وكيف عرفت أن الشتاء يأتيها ، وانها تفقد فيه الغذاء ، وكيف اهتدت الى تغطية خزانة العسل بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطا بالعسل من جميع جوانبه فلا يجففه الهواء . ولا يصيبه الفأر » .

***

بهذا الأسلوب يكتب القزوينى فى كتابه عجائب المخلوقات وعجائب الموجودات وهو الذى تناول (النفط) فيه ، فقال : انه يطفو على الماء ومنه أسود ومنه أبيض ، وقد يتحول الأسود بالقرع والانبيق فيصير أبيضا ينفع فى أوجاع المفاصل والفالج وبياض العين والماء النازل منها .

كان اماما فى الحديث عارفا بعلومه ، طاف العراق ومكة والشام ومصر ، وكتابه (عجــائب المخلوقات) هو دائرة معارف فى ثلاثة عشر مجلدا تضم أبحاثا مستفيضة فى الجغرافيا والفلك وتحدث عن السماء والأفلاك والقمر والكواكب والبــروج والملائــكة والزمان والريــاح والبحــار ومخلوقات الحيوانات والأرض والنباتات والطيور والمعادن وهى معارف واسعة ترجمت الى الفارسية وطبعت فى الهند وترجمت الى الألمانية والفرنسية وقد لقب بهيرودت العرب وكان حجة فى القضاء والفقه وله تفسير للقرآن .

(توفى ٦٨٢ هـ)

الكندى :

« أعص الهوى وأطع ما شئت ، لن تنجـو مما تكرهه حتى تمتنـع عن كثير مما تحب وتريد » تلك حكمة الكندى التى جعلها ناموس حياته ، وهو أول مسلم عربى اشتغل بالفلسفة واهتم بالموسيقى .

وقال ان الفلسفة هى الصناعة التى مقصودها تحصيل الجميل فقط ، ويروى ان الكندى كان يعرف عددا من اللغات القديمة .

وله شغف بالموسيقى والرياضة ، يؤمن بان الغلبـة والسيادة مطمح الحياة ، وقد أثرت فلسفته فى الشاعر « المتنبى » وكونت مذهبه الأخلاقى ، وقد عاش يلتمس كمال نفسه ، ويرسم صورة للمدنية الفاضلة ، التى يطمع فى أن يحققها العالم فتسعد الانسانية بمجتمع فاضل .

وكان الكندى قد استوعب حصيلة العلوم التى ترجمت من اليونانية ، عاش حتى عام ٢٥٢ هـ ، أى أنه عاش العصر الذهبى للترجمة العملية ، وكان قادرا على استيعاب هذه الثقافة وهضمها ، وقد عد الكندى فى عهد النهضة فى أوربا من أعمدة الحضارة العلمية .

وقد نسب اليه ما لا يقل عن (٢٦٥ كتابا) مؤلفا فى البصريات وأصول الموسيقى والتنجيم والكيمياء ، وقد سجلت مؤلفاته أن العرب عرفوا الأوزان الغنائية والقياسات الموسيقية قبل أوربا بقرون .

(توفى ٢٦٠ هـ)

الخوارزمى :

كان كتاب الخوارزمى (الجبر والمقابلة) أساس كل ما ألفه العلماء فى هذا الفن من بعد ، وهو أول من وضع علم الجبر وجعله مستقلا عن الحساب وصف بأنه أعظم رياضى ظهر فى عصر المأمون ، وكان له الفضل فى تقدم العلوم الرياضية ، ألف كتابه فى الجبر بعد أن رأى احتيــاج الناس الى كتاب يعينهم فى معاملاتهم التجارية ، وفى مسح الأراضى وفى حل المسائل التى يصعب حلها حسابيا ، وأول من استعمل لفظة (جبر) للعلم المعروف بهذا الاسم ، ترجم كتابه الى اللاتينية فى القرن الثانى عشر الميلادى المستشرق (روبرت اف سستر) ومنه استفاد علماء القرون الوسطى فى أوربا فكان أساسا لدراساتهم ، وهو أول كتاب عــربى دخل أروبا وقد أجريت عليه شروح كثيرة للحاسب وسنان بن الفتح الحرانى وأبو كامل شجاع بن اسلم .

وقد ترجم العلوم الفارسية واليونانية وكانت له أبحاث وجداول علمية فى الفلك ، من أهمها كتابه (السند هند) الذى نقل فيه آرائه بطليموس ، وزاد عليها وهو أساس أبحاث علم الفلك فى الاسلام . وتعد جداوله الفلكية (الازياج) أول أساس لهذا العلم ، كما عنى بتقويم البلدان ، شرح فيها آراء بطليموس ، وله موسوعة فى الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، وقد كان محمد بن موسى الخوارزنى اماما فى اللغة والانساب وهو غير (أبو بكر الخوارزمى) .

(٣٨٣ هـ)

البخـــارى :

كان الامام البخارى يقوم من الليل مرات متعددة ، ويأخذ القداحة ، فيورى نارا ويسرج ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها ، ثم يضع رأسه ، وفى ليلة كان قد تعب من تصنيف كتابه (الجامع الصحيح) فاستلقى على قفاه . فقال له محمد بن حاتم : سمعتك يوما تقول : انى ما اتيت شيئا بغير علم قط قد علقت ، فأى علم فى هـــذا الاستلقاء ، قال : أتعبنا أنفسنا اليـــوم ، وهذا ثغر من الثغور خفت أن يحـــدث حدث فى أمر العـــدو فاحببت ان استريح وآخذ أهبة ذلك .

وسمع بعضهم بعجائب أخباره فخرج فى طلبه ، فقال له : أنت الذى تقول : أنا احفظ سبعين ألف حديث ، قال النجدى ، نعم وأكثر ، ولا أجيبك بحـــديث عن الصحابة والتـــابعين الا من عرفت مولد أكثـــرهم ووفاتهم ومساكنهم ، ولست أروى حديثا من حديث الصحابة والتابعين الا ولى فى ذلك أصل أحفظه حفظا عن كتاب الله وكلام رسوله .

وسمع قوم بأخبار البخارى فخرجوا فى طلبه فلما لقيهم ، قالوا له : أنت الذى تقول : أحفظ سبعين ألف حديث ، قال : نعم وأكثر ، فعمدوا الى مائة حديث فقبلوا أحاديث ليلقوها على البخارى امتحانا له .

واستمع البخارى حتى فرغ العشرة ، ثم التفت الى الأول فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا وصوابه كذا ، وحديثك الثانى كذا وصوابه كذا .. حتى أتى على تمام العشرة ، فرد كل متن الى اسناده ، وكل اسناد الى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالفضل .

وقد ذهب « البخارى » يطوف فى العالم الاسلامى ستة عشر عاما ، واخرج (الجامع الصحيح) فى ستة آلاف حديث عن تسعين ألف رجل ولم يضع حديثا الا اغتسل وصلى ركعتين .

ولما عاد الى « بخارى » نصبت له القباب على بعد فرسخ من البلد ، واستقبله عامة أهلها ، ونثرت عليه الدراهم والدنانير ، وبقى مدة فى المسجد يحدث الناس ، فأرسل اليه « خالد بن محمد الذهلى » نائب الخلافة العباسية يسأله ان يحضر منزله ، فيقرأ الجامع الصحيح على أولاده ، فامتنع البخارى وقال لرسوله :

« قل له أنا لا أذل العلم ولا أحمله الى أبواب السلاطين فمن كانت له حاجة الى شيء منه فليحضر الى مسجدى أو دارى ، وانى لا أكتم العلم » .

وقال لقيت أكثر من ألف رجل من أهل الحجاز والعراق والشام ومصر وخراسان .

(توفى ٢٥٦ هـ)

جابر بن حيـــان :

ارتبط اسم (جابر بن حيان) بعلم الكيمياء وتحويل المعادن الى ذهب ، وقد اشتغل بصناعة (الكيمياء) فترة طويلة من حياته حتى قيل أنه ألف فى هذا الفن نحو خمسمائة كتاب ،و كان فى هذا تلميذا (لخالد بن معاوية) أول من تكلم فى علم الكيمياء ، وقد اكتشف جابر فى تجاربه ودراساته أمورا كثيرة بالغة الأهمية .

وكان يعد المعدن كائنا حيا ينمو فى بطن الأرض أمدا طويلا وينقلب من معدن خسيس للرصاص الى معدن نفيس ، كالذهب ، وعنده أن مهمة علم الكيمياء هى الاسراع بهذا الانقلاب ، وقد نسبت اليه استكشافات هامة فى الكيمياء ، مثل : ماء الذهب وحامض الكبريت وحامض الأزوتيك ونترات الفضة . وترجمت مصنفاته الى اللغات الأوربية وطبعت واشتغل بها الباحثون ، ومن أهمها كتابه « أسرار الكيمياء أو كشف الأسرار » وله أحد عشر كتابا فى الاكسير الأعظم ، وله فى المنطق والفلسفة مصنفات ، وكان أكثر مقامه بالكوفة وبها كان يدير الاكسير وذلك لصحة هوائها .

وبالجملة فهو أول من استحضر الحامض الكبريتيك بعد تقطيره من الشبه ، وسماه (زيت الزاج) واستحضر أيضا حامض النتريك ، وأول من كشف الصودا الكاوية ، أول من استحضر ماء الذهب .

ويصور جابر مذهبه العلمى : ويرفع صوته باجراء « التجربة » فيقول « ان واجب المشتغل بالكيمياء ، هو العمل واجراء التجربة ، وان المعرفة لا تحصل الا بها » .

(توفى ٢٠٠ هـ)

البيروني :

قال عنه العلامة سخاو : « انه اعظم عقلية عرفها التاريخ » ، والغربيون مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ، ومآثرهم فى العلوم ، وقد صاغ نظرية دوران الأرض حول محورها وحول الشمس .

وقد كان البيرونى باحثا فيلسوفا رياضيا جغرافيا ، من أصحاب الثقافة الواسعة ، وهو من الذين بحثوا فى تقسيم الزاوية الى ثلاثة أقسام متساوية ، وكان ملما بعلم المثلثات ، وكتبه فيه تدل على أنه عرف قانون تناسب الجيوب ، وقد عمل مع بعض معاصريه الجداول الرياضة للجيب والظل ، واشتهر « البيرونى » فى علم الميكانيكا ، ولجأ فى بحوثه الى التجربة ، وعمل تجربة لحساب الوزن النوعى ، وله كتاب فى خواص عدد كبير من العناصر والجواهر وفوائدها التجارية والطبية . وشرح فى مؤلفاته صعود مياه الفورات والعيون الى أعلى ، كما شرح تجمع مياه الآبار بالرشح من الجوانب ، واشتغل بالفلك وله جولات موفقه ، فقد أشار الى دوران الأرض على محورها ، هذا فضلا عن انه ألف كتاب فى الأسطرلاب وأخرج نظريته من القوة الى الفعل .

ويرى البيرونى أن مطالب الحياة تستلزم ايجاد فلسفة عملية ، تساعد الانسان فى تصريف الأمور وتميز بين الخير والشر ، والعدو من الصديق .

وأهم كتبه « الآثار الباقية » الذى يمتاز بروحه العلمى وتسامحه واخلاصه للحقيقة ، ويرى « البيرونى » أن العلم اليقينى لا يحصل الا من احساسات مؤلف بينها العقل على نمط منطقى . وله كتاب « تاريخ الهند » وقد ترجمه سخاو الى الانجليزية ١٨٨٧ ، وهو أول معتمد على كل دراسات الهند ، وكذلك له كتاب « تحقيق ما للهند من مقوله » ترجم ١٨٨٧ . وله عشرات المؤلفات .

ويصور البيرونى مذهبه العلمى فى مقدمة كتاب الآثار الباقية وعنده أن أقرب الأسباب لمعرفة (التواريخ التى تستعملها الأمم) هو معرفة أخبار الأمم السابقة وأبناء القرون الماضية ، لأن أكثرها أحوال عنها ، ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ، ولا سبيل الى التوسـل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات ، والقياس بما يشاهد من المحسوسات ، سوى التقليد لأهل الكتب والملل ، وأصحاب الآراء والنحل ، المستعملين لذلك ، ويعتبر ما هم فيه أساسا يبنى عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم فى اثبات ذلك بعضها لبعض ، بعد تنزيه النفس عن العوارض المردئة لأكثر الخلق والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهى كالعادة المألوفة والتعصب واتباع الهدى .

(توفى ٤٤٠ هـ)

الدينورى :

« قد اتينا على ما استحسنا تقديم ذكره قبل ذكر النبات نبتا نبتا ، فلم يبق الا ذكر أعيان النبات ، ونحن آخذون فى تسميتها ونجلوا كل واحد منها بما انتهى الينا من صفته أو ما شاهدناه ، وان كان فى شىء من ذلك اختلاف مما يرى انه ينبغى أن يذكر ذكرناه ان شاء الله ، وجعلنا تصنيف ما نذكر منها على أوائل حروف اسمائها » هكذا كشف أبو حنيفة الدينورى من علماء القرن الثالث عن منهجه فى كتابه « النبات » وهو شيخ النباتين العرب على الاطلاق .

وقد تحدث فى كتابه الذى يقع فى خمس مجلدات عن مختلف أنواع النبات ، وما قالته العرب عن نباتاته ، فيصف هذا النبات أو ذاك من زهر وثمر وورق ويستشهد بأقوال مختلفة عن صفات النبات واستعمالاته ومواطن نموه وازدهاره ، وقد تحدث عن نبات الاراك والاسحل والاثاب وثمر السرح والارطى والغضا والاقحوان وعشرات أنواع النبات ، وهو فى هذا مساو للجاحظ والدميرى فى موسوعات الحيوان .

وقد ترجم مؤلفه الى مختلف اللغات ، وعنى أحد « حديثا » العلماء الأجانب واسمه (لوين) بأن يترجم نصف الجزء الخامس من موسوعته فى ثلاثمائة وثلاثين صفحة .

يقول : ليس يبلغ بالانسان الى مراتب الاخيار الا الصدق ، وكل وقت وحال خال من الصدق فباطل .

وقد جمع الدينورى بين حكمة الفلاسفة وآداب العلماء ، وكان نحويا لغويا مع الهندسة والحساب ، راوية ثقة ، ورعا زاهدا وله تصانيف هامة منها الأخبار الطوال ، وتفسير للقرآن فى ثلاثة عشر مجلدا ، وتدل عباراته على عمق الفهم والصدق .

(توفى ٢٩٠ هـ)

الشريف الادريسى :

علم من أعلام الفكر العربى الاسلامى ، تجاهلته المصادر العربية طويلا ، بينما عنى به الغربيون ونشروا ذكره وأشادوا بعملية الكبيرين : خريطة الدنيا وكتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وهو واحد من الجوابين الذين طوفوا فى الأرض وذهبوا الى أقصى مدى ، بدأ رحلته فى السادسة عشرة من مسقط فى الأرض وذهبوا الى أقصى مدى ، بدأ فى طريقه حتى اتصل بروجار الثانى ملك صقلية عام ٥٣٣ م حيث أخذ يعمل فى صمت ومثابرة خمسة عشر عاما الى أن أتم مشروعه الخطير الذى لا زال حتى اليوم موضع تقدير الباحثين والعلماء ، وقد احاطه والى صقلية بتقدير بالغ ، وطلب اليه تأليف كتاب فى وصف مسلكته الواسعة .

وقام الأدريسى بعمل ما اسماه (لوح الترسيم) وهو تصميم جغرافى للكرة الأرضية ومشروع خريطة العالم ، ورسم الشريف الادريسى خريطة جامعة صحيفة لتكون بمنجاه من التلف ، فرغت لها دائرة من الفضة الخالصة عظيمة الجرم ، ضخمة الجسم فى وزن اربعمائة رطل بالرومى فى كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهما ، فلما كملت ، أمر الفعلة ان ينقشوا فيها صور الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وريفها وخلجانها وبحارها . وكانت هذه الخريطة الجامعة هى التصميم العام للكتاب (نزهة المشتاق) وقد منح روجار الشريف الادريسى ثلاثمائة وخمسين الف درهم من الفضة ، ومركبا مشحونا بأنواع الأحلاب الرومية جائزة على عمله العظيم .

(توفى ٥٦٠ هـ)

ابن ماجـــد :

« اعلم ان لركوب البحر أسباب كثيرة ، فأولها معرفة الشمس والقمر ، والأرياح ومواسمها وآلات السفينة ،وينبغي ان تعرف مطالع النجوم ومغاربها، طولها وعرضها ، وينبغي أن تعرف جميع البرور واشاراتها ، كالطين والحشيش ومد البحر وجزره ، وينبغي أن يعرف الصبر من التوانى ويفرق بين العجلة والحركة ، والحذر كل الحذر من صاحب السكان لا يغفل عنه ، وما صنعت هذا الكتاب الا بعد ان مضت لى خمسين سنة ما تركت منها صاحب السكان وحده ، الا أن اكون على رأسه او من يقوم مقامى » .

ذلك هو أحمد بن ماجدنابغة الملاحة المسلم فى القرن التاسع الهجرى ، تناهز مؤلفاته الأربعين وأشهرها (حادية الاختصار فى أصول علم البحار) وهى أرجوزة فى ألف بيت صاغ منها علوم البحر بلغة عامية ، لم يكتشـفه الباحثون العرب وانما كتب عنه العلماء الأجانب وألف عنه كراتشكوفسكى ودى مومبين وغيرهما وابن ماجد هو الذى أعان فاسكودى جاما فى تسيير أسطوله الى الهند ، فهو ربانه الذى طاف به حول الأرض من (مالندى) على ساحل افريقيا الشرقية الى (قاليقوت) فى الهند ، وقد أبان ماجد فى مؤلفاته الى كيفية استهداء البحار بمنازل القمر والبروج على البلاد التى يقصدها المسافر ، أشار فى مؤلفاته الى وصف ثغور الاقيانوس الهنـدى والبحر الصينى وشكل البرور ومراسى ساحل الهند الغربية والجزر العشر الكبرى .

وقد وصف المؤرخ البرتغالى (كستاتهيدا) كيف دهش (دى جاما) لسعة علم الملاح المسلم عندما أراه خريطة الساحل الهندى كله وعليها خطوط الطول والعرض بتفصيل .

وكيف أن (دى جاما) دعا الملاح المسلم ليشاهد الاسطرلاب الكبير الذى كان يحمله فى سفينته ، وآلات فلكية أخرى فلم يعجب المسلم لما رأى ، وانبأ (دى جاما) أن للملاحين العرب فى البحر الأحمر آلات متقنة مصنوعة

على غير مثال ما بين البرتغال ، وقال المؤرخ فلما عرف دى جاما قيمة هذا الكنز الذى ظفر به أحب الاحتفاظ بهذا المعلم المسلم ، واقلع متوجها الى الهند فى ٢٤ من نيسان ١٤٩٨ فجاز الخليج الكبير وطوله سبعمائة فرسخ فى ٢٢ يوما دون ان يلقى عقبة أو مشقة .

وقد أشار قطب الدين النهروانى الى أن ابن ماجد هو الذى دل البحارة الافرنج على الطريق الصالح للوصول الى الهند وكان طائفة منهم يمرون بموضع قريب من الساحل (رأس الرجاء الصالح) فى مضيق أحد جانبيه جبل ، والجانب الثانى بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج ، وقد هلك منهم الكثيرون فأشار ابن ماجد عليهم بالنصيحة وقال : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا فى البحر ، ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج (فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فكثروا فى بحر الهند) .

(توفى ٩٠٤ هـ)

الطبرى :

وصف بأنه كان ظريفا فى ظاهره ، نظيفا فى باطنه ، حسن العشرة لمجالسه ، منعقدا لأحوال أصحابه ، مهذبا فى جميع أحواله ، جميل الأدب فى مآكله وملبسه وما يخصه من أحوال نفسه منبسطا مع اخوانه حتى ربما داعبهم أحسن مداعبة ، وكان اذا أهدى اليه مهد هدية مما يمكن المكافأة عليها قبلها وكافأه ، والا ردها واعتذر الى مهديها ، هو ابن جرير الطبرى المحدث المؤرخ ، المولود فى طبرستان والذى طوف العالم الاسلامى ، فذهب الى العراق ، ثم خرج الى مصر مارا بأخبار الشام والسواحل والثغور وفى الفسطاط لقى الشيوخ وأهل العلم بها .

عرف بالثقة بنفسه وعلو الهمة وسعة المعرفة وغزارة العلم والعزوف عن الدنيا والزهد والتقشف ، حيث كان له مال من ضيعة ورثها عن أبيه ورفض عطاء محمد بن عبيد الله الوزير وكان عشرة آلاف درهم ، ومهد الطريق للمؤرخين والمفسرين ، وأسلوبه يجمع بين السهولة والجزالة ، كما رصع كتبه بالشعر والأدب ، وأقدم على تفسير القرآن فى ثلاثة آلاف صفحة ، وهو جامع البيان فى تفسير القرآن وقد أوحى اليه كتابه « تاريخ العالم » فألف تاريخ الأمم والملوك .

(توفى ٣١٠ هـ)

البــوزجاني :

تكشف أبحاث أبو الوفا البوزجانى عن أن العرب هم أول من عرف أصول الرسم على سطح الكرة وبرعوا فى هذا الفن ، وألف فى الحساب متبعا الطريقة اليونانية وساهم فى تقدم حساب المثلثات .

ولد فى خراسان ، وقرأ الهندسة على الماوردى ، وانتقل الى بغداد فى سن العشرين حيث بدأ الدرس والتأليف ، حتى أصبح واحدا من الائمة المعدودين فى علمى الفلك والرياضيات .

وقد اعترف له علماء الغرب بأنه من أشهر من برعوا فى الهندسة وسجلوا له فيها استخراجات غريبة لم يسبق اليها ، وله فى استخراج الأوتار بحث جيد ، وقد قضى البوزجانى حياته فى الرصد والتأليف والتدريس ، وكان واحدا من أعضاء المرصد الذى أنشأه شرف الدولة ٣٧٧ هـ وألم بمبادىء المثلثات التى أحبها وعكف عليها وله فيها اكتشافات وأبحاث ، وهو أول من أدخل المماس فى عداد النسب المثلثية ، واخترع طريقة لعمل الجداول الرياضية للجيب ، وله فى الرسم مقالة فى البناء الهندسى لم يعثر على أصلها العربى ذكرها (كاجدوى) فى كتابه تاريخ الرياضيات وله مؤلفات متعددة منها : المنازل فى الحساب عن النسبة وله كتاب فى الجبر ، وكتاب فيما يحتاج اليه الصناع فى أعمال الهندسة وكتاب الكامل فى علوم الفلك

(توفى ٣٨٨ هـ)

معطيات الفكر الاسلامى

ماذا يمكن أن يعطى جوهر الفكر الاسلامى للامة العربية ، وماذا يمكن أن يعطى البشرية والفكر الانسانى العالمى .

الواقع ان هذا الفكر قد أعطى وما يزال يعطى ، للفكر الانسانى مزيدا من الخير والحق .

ففى المجال الانسانى ، مجال حقوق الانســان ، يبدو الفكر العربى الاسلامى مصدرا غزير المنبع للمساواة وحــرية العبادة ، حيث لا فضــل لعربى على اعجمى ، ولا أبيض على أسود والناس سواسية كأسنان المشط ، ويكاد يكون مصدر حقوق الانسان واضحا فى كلمة عمر بن الخطاب :

« متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، الكل سواسية أمام الله ، لا سيطرة لأمة ولا لجنس » .

وتبدو صورة الانسانية واضحة فى خلال عشرات من النصوص :

١ — ما من أهل بيت يحرمون الرفق الا حرموا الخير كله .

٢ — فان جلبت النار ضيفا فأنت حر .

وفى مجال العمل والحث عليه : جماع بين عمل الدنيا والآخرة .

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا .

وايمان بالعمل :

انى لأرى الرجل فيعجبنى فأقول أله حرفة فان قيل لا : سقط من عينى.

وفى مجال الضمير .

قال ابن عمر للراعى ، بع لنا من هذه الغنم واحدة فقال الغلام انها ليست لى ، فقال : قل لصاحبها ان الذئب أكل واحدة ، قال الراعى : فأين الله . وتركه ومضى .

وفي مجال العدل والرحمة :

انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قيل يا رسول الله ، نعرف كيف ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ، قال ترده عن الظلم .

وفي الحرب : احترام للوعود والعهود ، ولا تستخدم القوة الا لرفع ظلم ، وحماية كاملة للطفل والشيخ والعباد العاكفين في الصوامع ، ولقد كان للعلم في مجال الفكر الاسلامي مقام خطير : فلا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ، ولا لتصرفوا به وجـوه الناس ، وهو دعوة عامة : كن عالما أو متعلما أو مستمعا واياك والرابعة فتهلك « ادعاء العلم » .

وقد سئل دعفل النسابه : بم ادركت ما ادركت من العلم فقال : بلسان مسؤول وقلب عقول .

(٢)

وابرز مفاهيم العلم في الفكر الاســلامي العربي المطابقة بين الكلمة والسلوك .

ولقد اهتز القاضي المجاهد « أسد بن الفرات » لفضل العلم عندما خرج على رأس الجيش الزاحف الى صقلية وهاله ما رأى من كثرة المودعين له من العلماء والوجوه ورجال الدولة وعامة الناس ، وقد صهلت الخيل وضربت الطبول ونشرت البنود ، فقال : والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط ، وما رأى أحد من سلفي مثل هذا قط . وما رأيت ما ترون الا بالأقلام ، فاجهـدوا انفسكم واتعبوا ابدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه ، واصبروا على شدته ، فانكم تنالون به الدنيا والآخرة .

ولم يكن الفكر الاسلامي العربي يؤمن بما يؤمن به الفكر الغربي ، من قصر العلم على أهله ، بل كان يحرم ذلك ويدعو الى نشره ما أمكن ، وعندنا ان العلم يزكو بالاتفاق ، وقد حرم الرسول اكتناز العلم .

وفى كل مجال يرسم الفكر الاسلامى جوهر المفهوم الانسانى للرابطة بين الانسان والحياة ، فى مجال علاقة الانســان بالانسان وبناء لشخصية الانسانية وايجابية الحياة ، وكون الزهادة ليست سلبية ، وليس الجهاد قتلا وعدوانا .

ويهدف الفكر الى بناء المجتمع والشخصية الانسانية على أساس العقل والخلق والكرامة ، والمساواة ، القوى ضعيف حتى يأخذ الحق منه والضعيف قوى بحقه .

وقد ظلت مزية الفكر العربى الاسلامى هى القدرة على الجمع بين العقل والقلب ، والروح والمادة ، وبين الدين والعلم . وهو ما تتطلع اليه الانســانية الآن حيث يقــول دعاة المذهب الانســانى ان تطور الانســان يجب أن يمتد فى أبعاد ثلاثة فى وقت واحد هى : الأبعاد المادية والثقافية والأخلاقية ، ويقول جوستاف لوبون : أننا مسيرون بثلاث حقائق هى الحقائق العاطفية والحقائق الدينية والحقائق العقلية .

وقد وصل « برجسون » الى ان الذهن البشرى وحده لا يستطيع فهم حقائق الحياة .

ويصور الفكر الاسلامى روح الاسلام ومفهومه :

المساواة بين البشر ، اسقاط فوارق اللون والجنس ومنذ ألف سنة قال ابن خلكان « ان البشرة السوداء لا تقلل من شرف النفس الطاهرة ولا تنقص من علم العالم ولا من سمو المفكر » .

والاسلام لا يؤله الانسان كما يفعل الفكر الغربى ، ولكنه يجعلهسيد الكائنات والعقد مصدر امتيازه ، وكل الموجودات وجدت لتحقيق سعادته . وقد أبرز سلطان العقل على البدن وتحكمه فى الغرائز لبناء انســان قوى قادر .

(٣)

وفكر الاسلام لا يحتقر الدنيا ولكنه يضع القيمة العليا للاتجاه بالعمل الى الله ، والقصد فى الحياة ، والاعتدال دون النفعية ودون الرهبانية على سواء ، ويرسم الفكر الاسلامى للشخصية الانسانية خطا واضحا فى مجال التسامى والايجابية : كالزهد فى وسط المغريات ، والكرامة والاباء عند الفقر والعوز ، والسمو والطهارة فى العبادة ، والتسامح خلال الحرب ، والحرية الصحيحة ممثلة فى كلمة « الله أكبر » والمساواة فلا سيطرة جنس على جنس ، ولا أمة ولا فرد ، والتوفيق بين الاتجاهين المتقابلين :

(اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) .

وسيادة الانسان فى الفكر الاسلامى ليست سيادة هيكله المادى ، ونموه الحيوانى ، ولكن فى سيادة القيم الانسانية من العدل والحرية والآخاء والمساواة والفكر الاسلامى يخاطب العقل والقلب ، والغاية من الحضارة عنده هى الأخوة والتعاون ، ورقى النفس عنده يجرى مع الرقى المادى ، فى التقاء المادة والنفس ، والروح والجسم ، دون اسراف أو انقباض .

وطلب العلم فريضة ، ويوزن مداد العلماء بدماء الشهداء ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها ، والانسان عنده كريم على نفسه : اذا سيم الخسف يقول لا ، وليس هو امعة : يقول اذا أحسن الناس أحسنت واذا أساءوا اسأت ، ولكنه يحسن دائما ، وليست الزهادة فى الدنيا هى تحريم الحلال أو اضاعة المال ، ولكن فى أن تكون بما فى يد الله أوثق ، وان مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة ، والفرد جزء من المجتمع والمجتمع هو كل الأفراد ، وليس فى الفكر الاسلامى العربى تعذيب للأجساد ولا انفتاح على اللذات والشهوات .

ويدور جوهر الفكر الاسلامى حول بناء انسان ممتاز ، ويدعو الى التحرر من استهلاك طاقاته الجسدية والمادية ، على أساس من القصد لا

الاسراف . وانسانيته تتمثل فى التعالى عن الصغائر فالفكر الاسلامى يعمل على التكوين الفردى الانسانى التقدمى ، فالغنى غنى النفس ، وذو البأس تعرف قدرته فى مواقع اللقاء وذو الأمانة يعرف عند الأخذ والعطاء ، والأخوة تعرف عند النوائب . ولكل أجر جزاء ، ومن يحصل على الأجر يعمل بضمير ، والزكاة ليست صدقة ، والعمل شرف ، والعلم من المهد الى اللحد ، والعمل للدنيا والآخرة ،والناس تتكافؤ دماؤهم وأموالهم ، والمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص .

وقد كان للفكر الاسلامى آثاره الواضحة العميقة فى النهضة الأوربية مرتين الأولى : فى ثورة الاصلاح الدينى فى القرن السادس عشر بقيادة مارتن لوثر وكلفن ، وكانت آراء ابن رشد قد خلقت مدرسة ضخمة لها فى قلب أوربا فلم يلبث ان نادى (كلفن) بما نادى به الفكر الاسلامى العربى فقال « ان الصلة بين الانسان والله هى السبيل الوحيد للغفران ، وان لا قوة الا بالله ، وليس لرأى بشرى حرمة التقديس » .

والثانية : فى نقل الغرب للفكر العربى الاسلامى فى مجال العلم ، وقد بدأ فضل المسلمين واضحا على الأدب والفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والطب والموسيقى والفنون والصناعة والزخرفة والعمرة ونحن لم نكن علة على اليونان ، وكان استمدادنا من منبعين : القرآن وكلمات محمد .

(٤)

وفى مجال استقلالية الفكر العربى الاسلامى ، يبدو أعلامنا وقد خالفوا آراء ارسطو وافلاطون فى كثير من النظريات فلم يتقيدوا بها ، بل أخذوا منها ما يتفق مع (روح الاسلام) ، وقال ابن سينا ان الفلاسفة يصيبون ويخطئون كسائر الناس .

وقد رفض الفكر الاسلامى رأى ارسطو فى الله لأن ارسطو جرد الاله من كل شيء ، وبدت الفلسفة الاسلامية فى ثوب الصراحة والعلانية ، مخالفة

غموض الفلسفية اليونانية ، وأعطى الاسلام الفلسفة نزعة الديمقراطية ، التى أنزلتها من السماء الى الناس ، ويختلف الفكر الاسلامى فى جوهر الفلسفة مع اليونان فالله عند الكندى هو المدبر وعند الفارابى هو مبدع الكل وعند ابن سينا هو واجب الوجود .

وقد رفض المسلمون الخرافات الوثنية وتعدد الاله وطابع الاباحة فى الفكر اليونانى .

ودعا (جابر بن حيان) الى اجراء التجربة وقال ان واجب المشتغل فى الكيمياء هو العمل واجراء التجربة ، وان المعرفة لا تحصل الا بها .

وفى هذا يقول جوستاف لوبون عن هميرلد : ان القاعدة عند العرب المسليمن هى « جرب وشاهد ولاحظ » تكن عارفا .

وقد كان المسلمون اكثر دقة فى هذا المجال الى درجة حملتهم على التعالى عن أخذ آراء الغير ونسبتها الى أنفسهم ، قال ابن الهيثم : ان وجدت كلا ما حسنا لغيرك فلا تنسبه لنفسك واكتف باستفادتك منه ، ويقول ابن حزم ما مذهبى ان أنضى مطية سواى وعنده أن التقليد حرام ، وانه لا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد من غير برهان .

وقد سبق المعرى (١) دانتى الى كتابة الكوميديا الالهية بكتابه المعروف « رسالة الغفران » وقد أخذ دانتى مادة الكوميديا التى كتبها أساسا من جوهر الفكر الاسلامى .

وزين العابدين الامدى (٧١٢ هـ) أول من ابتكر الكتابة البارزة للعميان .

ونظرية التطور قال بها اخوان الصفا فى رسائلهم ، وذكرها ابن مسكويه فى كتبه ، قبل دارون ، وقد وردت كلمة « التطور » بمفهومها فى الطبقات الكبرى للسبكى ومقدمة ابن خلدون .

وطريقة البحث العلمى المنهجى ، وضع أصولها : ابن الهيثم وابن رشد وابن حزم والجاحظ ، قبل ان يقول بها فرنسيس باكون فى القرن السادس عشر .

(١) أنظر : ك : أضواء على الفكر الاسلامى للمؤلف

كما سبق ابن الهيثم « بيكون » فى طريقة الاستقرائية وسما عليه وكان أوسع منه أفقا وأعمق تفكيرا (٢) وقد جمع ابن الهيثم بين الاستقراء والقياس ، وقدم الاستقراء على القياس ، وحدد الشرط الأساسى فى البحث العلمى وهو « طلب الحقيقة » دون أن يكون لرأى سابق أو نزعة من عاطفة أيا كانت دخل فى الأمر » .

وأبو بكر الطرطوشى سبق ميكافيلى فى كتابه (سراج الملوك) الى تقعيد سياسة الملوك وأخلاق الأمراء بأكثر من خمسة قرون مضت قبل صدور كتاب الأمير .

وقد وضع علماء المسلمين أساس النظريات الاقتصادية ، فظهر كتاب (الخراج) ليحيى بن آدم القرشى ٢٠٣ هـ أى حوالى (٨٧٩ م) وكتاب (الاكتساب فى الرزق المستطاب) للامام الشيبانى ٢٣٤ هـ (٨١٥ م) وكتاب الخراج لأحمد بن حنبل فمقدمة ابن خلدون .

وابن حزم دافع عن كروية الأرض بالعقل والدين ، وسبق (كانت) فى نظرية المعرفة بسبعة قرون والفارابى فكر فى أمم متحدة منذ قرون ، وعنده : ان الدين والفلسفة لا يتناقضان ، وابن رشد دعا الى مشاركة المرأة الرجل فى خدمة المجتمع والدولة .

ويرى الفارابى : أن السعادة ممكنة على وجه الأرض اذا تعاون المجتمع على نيلها بالأعمال الفاضلة ، وابن ماجد هو الذى قاد (فاسكودى حاما) فى طوافه حول الأرض .

وأخذ (دافيد هيوم) نظرية الغزالى من أن الأمور تتم بارادة الله لا بالأسباب الظاهرة وفى علوم الطب سجل (لكرك) ثلاثمائة كتاب نقلها الغرب من العربية الى اللاتينية ، وقال : ما عرفت أوربا المدنية الا بعد أن مرت على لسان اتباع محمد .

وما تزال قواميس اللغات الأوربية تعج بالكلمات العربية سواء ما يتعلق منها بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو العقاقير ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة .

وأشار جورج سارطون الى فضل المسلمين على العلم فقال : انهم لم ينسخوا من المصادر اليونانية أو السنسكريتية (الهندية) ولكنهم جمعوا بين المصدرين ثم لقحوا الآراء وهذا هو الابتكار ، فالابتكار هو حياكة الخيوط المتفرقة فى نسيج واحد . وقد اكد العلماء بأن المسلمين هم مبدعو « التجربة » بالمعنى الدقيق للكلمة ، وأول من جعل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث .

وقد تأكد أن الغزالى فى دراسته للدولة أو المدينة يعقد المقارنة بينها وبين جسم الانسان ، ويرى الباحثون ان الغـزالى فى ذلك أسبق من الفيلسوف هربرت سنبسر الذى عمد الى نفس المقارنة ، فالغزالى يشـبه الملك بالقلب ، وأصحاب المهن الحرة بأعضـاء الجسم والشرطة بعصب الانسان ، والوزراء بحسن الادراك والقضاة بالشعور .

(٥)

ــ ومصدر الفكر الاسلامى يلتمس أساسا من القرآن الكريم ، كتاب الاسلام والعربية ، وليس أدل على أثر القرآن من كلمـة جورجى زيدان فى كتابه آداب اللغة العربية ، يقول :

« وتأثير القرآن فى اخلاق اهله ومعاملاتهم اليومية والبيئية لا يخلو من التأثير فى عقولهم وقرائحهم وآرائهم فالصيغة القرآنية أو الاسلامية تظهر فى مؤلفات المسلمين ، ولو ألفوا فى الفلسفة أو الطب أو الفلك أو الحساب أو غيرها من العلوم الرياضـية والطبيعية ، فضـلا عن العلوم الاسلامية والشرعية والأدب .

والقرآن أشد تأثيرا فى المسلمين من سواه لأنهم مكلفون بحفظه قبل كل علم ، وهو داخل فى كل شىء من أمورهم الدينية والدنيوية ، وأساس شرائعهم القضائية وقاعدة معاملاتهم اليومية وأحوالهم العائلية ، حتى الطعام واللباس والشراب والنوم ، وهذا ما لا نراه فى الأناجيل مثلا ، فانها كتب تعليمية لمصلحة الآخرة فقط ، ولا نجد فيها شرعا أو حكومة أو أحوالا شخصية أو نحو ذلك .

وبالجملة فان للقرآن تأثيرا فى آداب اللغة العربية ليس ككتاب دينى مثله فى اللغات الأخرى » .

ومن مضمون هذا تبدو قوة الكلمة فى امتـدادها ، وتوسعها فى مختلف حلقات الصحابة والزهاد والمجاهدين والعلماء ويبدو أثـر اللغة العربية فى الفكر الاسلامى ، فما تزال اللغة العربية هى لغة الاسلام وهى لغة الفكر والثقافة للمسلمين قاطبة بالاضافة الى أنها لغة العالم العربى .

ولقد كانت اللغة العربية التى نـزل القرآن بها أسـاسا لغة عالمية أدهشت الباحثين فى تطورها ونموها على النحو الذى يصوره ارنست رينان فى كتابه « اللغات السامية » يقول :

« ان من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء بدء ، فبدأت فجأة فى غاية الكمال سلسة أى سلاسة ، غنية أى غنى ، كاملة ، بحيث لم يدخل عليها منذ يومنا هذا أى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت أول أمرها تامة مستحكمة ، ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة ان يترجمـوا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى .

ومن أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى عنـد أمة من الرحـل ، وتلك اللغة التى فاقت اخواتها بكثرة مفرداتها ، ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حلل الكمال الى درجة انها لم تتغير أى تغير يذكر ، حتى أنه لم يعرف لها فى كل أطوار حياتها طفولة ولا شيخوخة » .

(٦)

وقد أعطى « الفكر الاسلامى العربى » فى كل مجالات الفكر :

وفى مجال العلوم والفلسفات ، اعطى « منهج البحث العلمى » الذى عرفه الغرب من بعد ، وكانت له الأوليات الأساسية فى دراسات التاريخ والاقتصاد ، وفى مجال التربية كان للكلمة العربية أثرها ومكانها ، فان الآراء التى أعلنها ابن سينا ونادى بها وما تزال حية وقد اثبتتها الآن دراسات التربية الحديثة ، ونظرته هى اليوم موضع التطبيق من حيث التوجيه المدرسى وفقا لميول الأطفال وقدراتهم ، والتوجيه المهنى والآخذ بنظام التعلم الفردى والجمعى فى وقت واحد ، والتعلم وفق قاعدة الانتقال من السهل الى الصعب .

ونظرات الغزالى فى التربية هى أيضا اليوم مصدر نظريات العصر كنظرية التعليم بالترابط والتداعى حيث يكون الترابط فيه بين فكرة وأخرى وهى ما صوره الغزالى فى قوله « على الطالب ان لا يدع فنا من العلوم المحمودة ، ولا نوعا من أنواعه الا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته طالبا التبحر ، لأن العلوم متفاوته وبعضها مرتبط ببعض » .

وكذلك « الطريقة القياسية » الحديثة حيث يبدأ التدريس من الجزئى الى الكلى .

ويصور هذا المعنى « بيارد دودج » فى كتابه التربية الاسلامية فى العصور المتوسطة والذى يلخصه أساسا فى عبارة الرسول « انما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق » .

ويقول عن مفهوم التربية الاسلامية « ان التربية تفاعل بين المعلم والطالب وتجاوب بين نفسين وعقلين فى جو من الحرية والاحترام ، وليس للمنهاج شأن يذكر ، وانما التوصية على الصلة الشخصية ، والتربية القائمة

على أساس التفاعل الشخصى تكون أقرب الى التلقين منها الى تربية العقل والنفس .

وقال : ان التربية الاسلامية تهدف الى نشدان الحقيقة والخير لذاتهما وعندما ندرس سير علماء المسـلمين الذين انقطعوا للعلم نعجب بالتصوف العلمى والجلد اللذين كانا يتجليان فى العالم الاسلامى ، فلا غرض مادى ، ولا هوى سياسى ولا سعى لشهرة زائلة ، بل وقف العقل والنفس للوصول الى الحقائق والسعى اليها ، ولقد كانت التربية الاسلامية تعنى بالأخلاق والفضائل ، ولقد أدرك المربون بالبداهة أن تدريب العقـل واستيعاب الحقائق هما جزء من عملية تدريب الطالب ولكن الغاية القصوى هى تهذيب النفس وتقويم الأخلاق » .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن العلامة « العبدرى » هو أول من دعا الى أن يلعب الأطفال باللعب بعـد المكتب حتى تذهب عنهم آثار التعب والملل .

ويمكن أن يصحح هذا خطأ شائعا حاول « التغريب » اذاعته وهو أن الغرب أول من دعا الى التعليم المجانى الملزم ، والواقع ان المسلمين قد بدأوا ذلك منذ فجر الاسلام ، وقد أشار أبو الحسن القابسى فى دراسته المسماه « رسالة أحوال المعلمين والمتعلمين » الى ان التعليم حق لكل صبى ، وواجب على الدولة وهى مكلفة به ، اذا لم يكن أهله قادرين على الانفاق عليه ودفع أجر معلم الكتاب من بيت مال المسلمين .

وثانيا : تعليم البنات ، لأن الاسلام عام لجميع النـاس فمثلا يقول الرسول « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

ولا ننس هنا حديث النبى (صلى الله عليه وسلم) « اطلبوا العلم من المهد الى اللحد » ولقد طبق كثير من الدول هذا الحديث واعتبرته شعارا لها ، وظن بعض شبابنا أنه من صـناعتهم وأنه غير مسـبوق فى الفـكر الاسلامى .

أما المرأة فقد كان فكرنا حفيا بكرامتها وحريتها وفضلها ، وقد أشار اليها فى تقدير واعزاز علمان من أبرز أعلامنا هما : ابن خلدون وابن حزم وكل منهما دعا الى حريتها وتعليمها وعرف بحقها فى العمل .

وترد هـذه الكلمات على كل ما يوجه للفكر العربى الاسلامى من اتهامات وهى تعطى الدليل بالقلب على خطأ الرأى القائل بأن فكرنا روحى خالص ، ذلك أن فكرنا يمثل امتزاج الروح بالمادة والعقل . ويؤكد أيضا ان فكرنا لا يعطى روح التشاؤم ولا السلبية ولا الانحراف ولا الاحساس بأن الحياة عبث كما تعطى بعض الفلسفات .

وهى تدلل بالبرهان على أن المسـلمين كانت لهم عقليتهم ومقومات فكرهم وانهم لم يستمدوا علومهم وفلسفتهم من فكر اليونان ولا أى فكر آخر . وهى ليست قاصرة عن الخلق ، أو عاجـزة عن استنتاج المعانى أو مجاراة الزمن .

وتكذب هذه الكلمات أيضا ما يقال من أن فكرنا فكر غيبى ، أو فكر التواكل والتسليم ، بل انها لتؤكد الواقعية والعصرية والايجـابية للفكرة الاسلامية بأوضح وأجلى برهان .

(٧)

وفى ضوء هذه العصارة تتكشف الحقيقة الواضحة من أن مفاهيم الاسلام تلتقى بالحياة ولا تنفصل عنها ، وانها تستطيع ان تعطى طابع الابداع والايجابية والعصرية والتطور والحركة ، وليس صحيحا ما وصفت من أنها كانت تتطلع الى العالم الآخر وحـده ، فلقد كانت تمـزج بين الدنيـا والآخرة فى رؤيا واحدة ولم يمنعها ذلك من الكشف والبحث والعلم والعمل الايجابى المنتج فى مجال الحضارة الانسانية .

وليس من العدل أو الانصاف ان يحاكم الفكر الاسـلامى الى فترة الضعف التى مر بها العالم الاسلامى فلم تكن قيم الاسلام هى التى حالت دون التقدم أو هى التى وقفت بالمسلمين وقفة الجمود ، وانما تتمثل « الأزمة » فى الانفصال بين جوهر الفكر الاسلامى وبين التطبيق ، فليس الاسلام سبب التخلف ولكن المسلمين تخلفوا عندما انسحبوا من مقومات فكرهم ،

هذا الفكر الذى يمثل النظرة الشاملة المتكاملة فى الأبعاد الروحية والمادية والعقلية ، والتى تجمع العلم والخلق ، وتمزج الرفاهية مع سلامة الانسان ورقيه الروحى وتمثل التقاء العلم والضمير وارتباط الرقى المادى بالرقى النفسى .

***

ولقد كان الفكر الاسلامى قادرا على الحياة دائما وعلى التخلص من النظريات التى تحاول أن تفسد جوهره ، فقد حارب فى فترات نموه ، التقليد الأعمى والجمود والخرافات ، وحرص كثير من أعلامه كالأشعرى والغزالى وابن تيمة على حمايته من تجاوز الفلاسفة أو تجاوز الصوفية .

وقد عاش دائما « واقعية الحياة » واستطاع أن يتجدد وان يجتهد متخلصا من قيود التقليد ، وقد أعطت النماذج المتعددة ، لمفاهيمه وقيمه وقدرة المفكرين المسلمين من فقهاء وأئمة قدراته على ملابسة أحوال العصور وتعرف حاجات الناس ، وايجاد حلول ايجابية تقدمية حية لكل حالة ، مقدرين تطور الزمن وتغير البيئات .

فالفكر الاسلامى يمثل خطا موحدا متصلا ، عماده الانسان وبناء كيانه النفسى والمادى معا ، وايجاد حلول لمختلف قضاياه ومشاكله . ولقد يذهب بعض الدارسين هنا وهناك يبحثون عن كلمات شرقية أو غربية حديثة ليجدون فيها عصارة التجربة الانسانية الايجابية . وما من كلمة هنا وهناك .. الا وقد مرت على لسان العربية وفكر الاسلام .

وقد أعطت الكلمة المستمدة من القرآن ، تلك القوة الذاتية التى مكنت من مقاومة كل عدوان ، وحماية المقومات .

وما زال الفكر الاسلامى فى جوهره ومنابعه قادرا على اعطاء الانسانية فيضا من الانسانية والكرامة ، واقامة العدل وتوثيق بناء الحضارة على أساس التضامن والمساواة والأخوة . وفى أزمة الانسان والضمير العالمى اليوم يجد الفكر الاسلامى طريقا جديدا ليكون بلسما للانسانية وعلاجا لها من أزمتها الحاسمة .

وعندى ان هذه الكلمات تستطيع ان ترسم « المثل العليا الجديدة للعرب والمسلمين » ، وهذا بالله التوفيق .

المصادر العامة

البخاري .. .. الجامع الكبير

ابن عبد ربه .. .. العقد الفريد

المبـــرد .. .. الـكامل

الغزالى .. .. احياء علوم الدين

عبد الرحمن بن خلدون .. .. مقدمة ابن خلدون

ابن خلكان .. .. وفيات الأعيان

ابن شاكر الكيتى .. ..فوات الوفيات

القزوينى .. .. عجائب المخلوقات

المقرى .. .. نفح الطيب

ابن أبى صبيعه.. .. ..عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء

أبو حيان التوحيدى .. .. المقايسات

الجاحظ .. .. البيان والتبيين

ياقوت .. .. معجم الأدباء

ابن منبه .. .. أدب الكاتب

ابن مسكويه .. .. تجارب الأمم

الحصرى .. .. زهر الآداب

أبو هلال العسكرى .. .. جمهرة الأمثال

ابن هشـــام .. .. سيرة النبى

الزرقانى .. .. شرح الموطأ للامام مالك

القلقشندى . .. . صـبح الأعشى

المعرى .. .. رسالة الغفران
الامام مسلم .. .. الجامع الصحيح
الجاحظ .. .. .. الحيوان : تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون
البغدادى .. .. خزانة الأدب
ابن الجوزى .. .. عمر بن الخطاب
أبو على القالى .. .. الأمالى
أبو حيان التوحيدى .. .. الأمتاع المؤانسة
أبو الفضل أحمد بن على الكنانى .. الاصابة فى تمييز الصحابة
ابن الأثير .. .. أسد الغابة فى معرفة الصحابة
ابن أبى الحديد .. .. شرح نهج البلاغة
ابن قتيبة .. .. عيون الأخبار
ابن المقفع .. .. كليلة ودمنة
ابن الأثير .. .. المثل السائر
النويرى .. .. نهاية الأرب
البيرونى .. .. الآثار الباقية عن القرون الخالية

المراجع

الاعلام الألف : الاستاذ أنور الجندى
الأئمة الاربعه : فضيلة الشيخ احمد الشرباصى
عمر بن عبد العزيز : الاستاذ عبد العزيز سيد الأهل
فصول مختلفة فى الصحف : الاستاذ على الجندى
صفحات من أمجادنا : الاستاذ أنور الجندى
الوزراء العباسيون : الاستاذ احمد برانق
أضواء على الفكر العربى الاسلامى : الاستاذ أنور الجندى

الفهـــرس